الدكتور
عبد الحميد محمود متولي

هدايات الطريق من سورة الرعد

في ظلال التفسير

إهـــــــداء٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة



الدكتور
عبد الحميد محمود متولي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية الدراسات الإسلامية ـ جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

• إهــــداء •

إلى الله العليِّ الأعْـلى بادئ ذِى بَدْء، أوجـه ندائى وأبْتَـــهل إليـه سبحانه بِخالص شُكرى وعِـرفانى لِوجهه العظيم، ثم إلى رسولنا الكريم صلوات ربى وسلامه عليه، والذى علَّمنا الحِكمة وفَصْل الخطاب.

ثم إلى كل العاشقين لِلعِلْم والدين، إلى العالِمين والمُتعلِّمين على حَدٍّ سواء فى مشارق الأرض ومغاربها.

نُقدِّم هذا الجهد المتواضع، وهو جَـهْد المُقِلِّ فى تفسير تحليلى وروحى لِســورة من سور القـرآن المدنى، وهى سورة الرَّعْـد والتى زخرت بالعـديد والعديد من الصفات الإيمانية الخالِصة، والتى يجب أن يَتحلَّى بها المؤمن فى علاقاته بربه ومعاملاته، ولإِقامة الأدلة على الوحدانية وغير ذلك، لِتكون نِبْراسًـا، وأملا للأجـيال الطالعـة على طريق الحق والحقـيقـة والرشاد، ولِتكون مِشْكاةً مُتلألِئَةَ العطاء مُفْعمة بِمعانى الروعة والبهاء.

لعلَّ الله أن يَنْفَـعنا بها، ويَنْفع بهـا، ويَهْدى بها للـتى هى أَقْوم إن شاء الله تعالى.

ولعلَّ الله أن يتقبَّلها بِقبول حَسَن من فضله سبحانه.

إنه نعم المولى ونعم النصير ـ ﴿ ... إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾(١).

فالرجوع والمصير إليه وحـده؛ ليجزينا من فضله الجزاء الأوفى والله عنده حسن الثواب.

المؤلف

---

(١) من الآية رقم [٨٨] من سورة هود.

• المقـــدمة •

الحمد لله الذى جعل كتابه العزيز، دستورًا للأنام فى بيان الأحكام، وشاملاً لما شرع لِعــباده من الحلال والحرام، وشافيًــا لِلسِّقام، وهو العروة الوثقى التى لا انفصام لها، على طريق الحق والرشاد والسداد لخير العباد بمشيئته سبحانه فى الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد لِرب العِباد.

ونُصلى ونسلم على خير خلق الله، وصــفــوة رسل الله ـ محمد ابن عــبــد الله ـ صلوات ربى وســلامه عليــه، آتاه الله الحِكمــة وفــصل الخطاب، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما.

وسلام على عباده الذين اصطفى، وعلى من اهتدى بِهداهم، ونهج نهجهم إلى يــوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وسَلِّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد

وسيــان أن نقول أما بعد أو أمــا قبل، فكتاب الله المبين هو دســتور الحق، والمعاملات العــادلة المستقيمة، والأخلاق النبــيلة، والآداب العالية الرفيــعة، التى تُربى الأمم والجــماعات تــربية فاضلة راشــدة بمشيــئة الله تعــالى، وتأخذ بــنواصيــهم إلى السُّؤْدد، والنجاح والــفلاح فى الدنيــا والآخرة بمشيئة الحنَّان المنَّان.

ومن سور كــتاب الله المجــيد، تلكم الســورة التى بَيْن أيدينا، وهى ســورة الرعــد المدنيــة، التى ترسم العــلاقــة فى المجتــمع فى الحــقــوق

والواجبات، وتُؤسس قواعد التـوحيد والرد على المعارضين المكذبين بأبلغ بيان.

وقد تضمنت الدراسة:

إهداء ومُقدمة وعشرة مباحث وخاتمة وقائمة مراجع وفهرسًا.

والله نسأل أن يجـعلها خـالِصة مـخلصة لوجـهه الكريم، ونافـعة لِعباده، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

ربنا إنك سميع الدُّعاء.

المبحث الأول

التعريف بالسورة ومتعلقاته

أولا: المقاصد والأهداف العامة للسورة:

أ ـ المقاصد:

أهم العناصر التى وردت فى السورة تتمثل فيما يلى:

١ ـ القرآن منزَّل من قبل الله تعالى.

٢ ـ مظاهر قدرته سبحانه فى الآفاق.

٣ ـ إنكار المشركين للنبوة والبعث والجزاء وشُبُهاتِهم.

٤ ـ دلائل العِلم والقدرة والوحدانية.

٥ ـ ضرب الأمثال فى القرآن لِلعظة والاعتبار.

٦ ـ صفات أولى الألباب وجزاؤهم فى النعيم المقيم.

٧ ـ وعلى النقيض حال الأشقياء والتُّعساء فى الدنيا والآخرة.

٨ ـ بسط الرزق وضِيقه بيد الله تعالى.

٩ ـ موقف أهل الكتاب من القرآن والذى هو العلم اليقينى.

١٠ ـ ثم خُتمت السورة بشهادة الله لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله تبارك وتعالى.

ب ـ أهم الأهداف العامة للسورة:

١ ـ إقامة الأدلة على التوحيد، وإثبات البعث ويوم القيامة بمشيئة الله تعالى.

٢ ـ بيان أن لكل إنسان ملائكة حفظة، تكتب عليه الحسنات والسيئات.

٣ ـ بيان حال المتقين، الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وبيان الذين ينقضون عهد الله ويُفسدون فى الأرض، ومصيرهم البوار، لِيميز الله الحق من الباطل، وليتمسك أهل الحق به؛ حتى يفوزوا ويسعدوا فى الدنيا والآخرة بمشيئة ربهم وفضله.

ثانيًا: بين يدى السورة:

١ ـ وسميت سورة الرعد بهذا الاسم لقوله تعالى:

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ... ﴾[١].

أى يُسبح الرعد له تسبيحًا مُقْترنًا بحمده والثناء عليه سبحانه.

«والرَّعد صوت السحاب أو صوت ملك يسوق السحاب، وقد رَعَدَت السماء وبرقت، وأرْعدت وأبْرقت»[٢]ـ يعنى أحدثت هذا الصوت المفزع.

---

(١) من الآية رقم [١٣] من سورة الرعد.

(٢) مفردات الراغب ص٢٠٣ .

« وهذا هو الاسم الذى ذكرت به واشتهرت »[1]ـ وهو أبرز مَعْلم فيها، هكذا سميت من عهد السلف، وهى مسماة بذلك من عهد النبىﷺ إذ لم يختلفوا فى اسمها.

«وسُور المدينة حائطها المشتمل عليها، وسورة القرآن تُشَبَّه بهذا الحائط الذى يُحيط بسور المدينة»[2].

فالسورة من القرآن مُحدَّدة بِعدد من الآيات لها أول ولها آخر، ورقم كل آية فى آخرها.

وترتيب الآيات فى السور توقيفى، وقليلا ما يحدث اختلاف فى عَدِّ آيات بعض السور ـ لأن الرسول ﷺ ـ كان يقف فى موضع فَيُظَنُّ أنها نهاية آية، وقد يصل فى وقت آخر، فَيُظن أنها وما قبلها آية واحدة.

٢ ـ «وعدد آيات السورة سَبْع وأربعون عند الشاميين، وثلاث عند الكوفيين، وأربع عند الحجازيين، وخمس عند البصريين.

وكلماتها ثمان مائة وخمس وستون، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف»[3]ـ وقد يحدث بعض الاختلاف فى الحروف بالقراءات.

وهكذا اهتم الكاتبون بحصر عدد الآيات والحروف، فى كل سور القرآن الكريم؛ لأن الإنسان يُثاب على قراءة كل حرف عشر حسنات، فيا له من ثواب عظيم، نَحْرص عليه كُلَّ الحِرْص إن شاء الله تعالى.

---

(١) التحبير فى علم التفسير للسيوطى ص١٤٤ .

(٢) مفردات الراغب ص٢٥٤ .

(٣) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ١ ص٢٦٢ .

٣ ـ «وسورة الرعد هذه برقم ١٣ فى المصحف الذى بين أيدينا بعد سورة يوسف»[١]- وبعدها فى المصحف سورة إبراهيم، وترتيب هذه السور توقيفى.

«نزلت بعد سورة محمد ﷺ»[٢] فى ترتيب النزول.

«وللسلف رأيان فى أنها مكية أو مدنية»[٣] ومنهم من يستثنى بعض الآيات حسب اختلاف القُرَّاء.

قال البعض إنها مكية؛ لأنها شبيهة بالسور المكية فى قصصها وموضوعاتها.

٤ ـ وجه مناسبتها لما قبلها فى المصحف وهى سورة يوسف.

أ ـ أنه لما قال فيما تقدم فى سورة يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[٤].

فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية فى هذه الآية من سورة يوسف، ثم فَصَّل جل شأنه ذلك فى سورة الرعد أتم تفصيل ـ حيث مَدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ومن كل الثمرات، وجنات من نخيل وأعناب.

وقد فَصَّل سبحانه أدلة التوحيد فى سورة الرعد، وهى تلك التى أشار إليها باختصار فى سورة يوسف: ﴿... أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٥]ـ نعم رب واحد قاهر خير من أرباب مُتعددة.

---

(١) تفسير القاسمى جـ٦ ص١٢٣ .

(٢) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٣ .

(٣) تفسير القاسمى جـ٦ ص٣٢١ كذلك.

(٤) آية رقم [١٠٥] من سورة يوسف.

(٥) من الآية رقم [٣٩] من سورة يوسف.

ب ـ ذكر فى كِلتا السورتين الرعد ويوسف، أخبار الماضين مع رسلهم، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وكتب الخزى على الكافرين، والنصر لِرسله وللمؤمنين، بمشيئته وفضله تسلية لرسوله ﷺ وتَثْبيتًا لِقلبه.

جـ ـ اشتراك آخر آية فى سورة يوسف مع أوائل الرعد، فى وصف القرآن بما لا يَخْفَى، وأنه تصديق الذى بين يديه: ﴿... وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾[1] ـ وهى آخر سورة يوسف، والآية الأولى من الرعد: ﴿... وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ...﴾[2]. فالحق مشترك بين الآيتين بمشيئة الله.

٥ ـ وجه مناسبتها (الرعد) لما بعدها فى المصحف وهى سورة إبراهيم.

أ ـ أشار فى أوائل السورة الماضية الرعد، إلى أنه تعالى: أنزل الكتاب من لدنه بالحق، وذلك فى الآية الأولى من السورة، وهنا فى أوائل سورة إبراهيم صرح بأن هذا الحق، إنما هو لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله الواحد القهار.

ب ـ ذكر سبحانه فى سورة الرعد أمره لرسوله ﷺ بالتوكل عليه تعالى فى آخر الآية رقم ٣٠ ﴿... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ـ أى عليه وحده اعتمدت وإليه توبتى ومَرْجعى، فيُثيبنى على مجاهدتكم، والغرض تسلية النبى ﷺ مما يلقاه من تكذيب الكُفَّار.

---

(١) من الآية رقم [١١١] من سورة يوسف.

(٢) من الآية الأولى من سورة الرعد.

وفى سورة إبراهيم ـ حكى الله عن المرسلين ـ أمرهم بالتوكل عليه جل فى علاه فى آخر الآية رقم ١١ ﴿... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وفى آخر الآية رقم ١١٢ ﴿... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

والتوكل على الله هو الاعتماد عليه وتَفْويض الأمر إليه.

جـ ـ كذلك ذكر المكر فى السورتين الرعد وإبراهيم.

وفى المفردات: «المكر صَرْف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان:

مكر محمود، وذلك أن يتحرَّى فِعلاً جميلاً.

ومكر مَذْموم: وهو أن يتحرى به فعلاً قَبيحًا، مثل قوله تعالى: ﴿... وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ...﴾[1].

يعنى: ولا يحيق وبال المكر السىء إلا بمن مكره ودبَّره[2]ـ فمن حفر لأخيه حُفْرة وقع فيها.

وبمناسبة المكر ـ يقول تعالى: ﴿... وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[3].

يعنى أن مكره تعالى أَنْفذ من مكرهم وأبلغ تأثيرًا، بمشيئته سبحانه.

وقد ذكر سبحانه المكر فى سورة الرعد.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ..﴾[4].

---

(١) من الآية رقم [٤٣] من سورة فاطر.

(٢) مفردات الراغب ص٤٩١ .

(٣) من الآية رقم [٣٠] من سورة الأنفال.

(٤) من الآية رقم [٤٢] من سورة الرعد.

أى مكر الكفار الذين خلوا بأنبيائهم، كـما مكـر كفـار قريش بك يا رسول الله، صلى الله عليك وسلم، فَلَه تعـالى أسباب المكر جميعا، وهو يُجازى عليـها، ولا يضـر مكرهم إلا بإرادته سبحـانه، وهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون.

كما ذُكر المكر فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ... ﴾[1].

يعنى مكر المشركين بالرسول ﷺ، وبالمؤمنين حين أرادوا قتله، وعند الله تعالى جزاء هذا المكر، فهو سبحانه مُحيط بهم وبِمكرهم والله غالب على أمره.

وبهذا ينتهى المبحث الأول فى التعريف بالسورة ومتعلقاته.

(١) من الآية رقم [٤٦] من سورة إبراهيم.

المبحث الثانى

دلائل الوحدانية والقدرة

ويضم الآيات من أول رقم ١ ﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ...﴾ إلى آخر الآية رقم ٤ ﴿... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآيات:

يقول تعالى:

﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

تمهيد:

وقد افتُتحت سورة الرعد، ببعض الحروف المقطعة وسبق أن تكلم فيها العلماء، فى سور البقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود ويوسف.

أ ـ المفردات والنواحى البلاغية:

ـ ومن وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلى:

الإشارة بالبعيد عن القريب فى ﴿ ... تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ... ﴾[١].

تنزيلاً لها منزلة البعيد للدلالة على علو شأنها، ورفعة منزلتها.

و(أل) فى الكتاب للتفخيم، أى الكتاب العجيب الكامل فى إعجازه وبيانه.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ﴾ ـ من الآية رقم ٢ من السورة.

والعمد: جمع عماد، وهو ما يُقام عليه القُبة أو البيت.

يقول الراغب:

«والعماد ما يأخذه الإنسان بيده، مُعْتمِدًا عليه من خَشَبة أو من حديد»[٢]ـ وما إلى ذلك.

فالعمد: الدعائم وهو اسم جمع، وقيل جمع عمود.

ـ قوله تعالى: ﴿ ... وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ ... ﴾ – من الآية رقم ٣.

«والراوسى جمع راسية وهى الثابتة»[٣]ـ المستقرة.

ـ قوله تعالى: ﴿ ... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ... ﴾ من الآية رقم ٣.

«غَشِيه وتَغشَّاه وغِشاءً، والغشاوة ما يُغطَّى به الشىء»[٤]ـ فَيُخْفيه.

ومن النواحى البلاغية: فى يغشى الليل النهار.

(١) من الآية الأولى من سورة الرعد.

(٢) مفردات الراغب ص٣٥٩ .

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى جـ٣١ ص٦٣ .

(٤) مفردات الراغب ص٢٩٥ .

«فيها استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة، بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية - أى يستر النهار بالليل»[١]- فما أبلغ هذا التعبير.

وفى القراءات: (يُغَشى) - بفتح الغين وتشديد الشين، حمزة والكسائى وغيرهما، وقُرئ بالسكون والتخفيف من أغشى»[٢]- والمعنى واحد.

- قوله تعالى: ﴿ .. صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. ﴾ من الآية رقم ٤ .

يقول الراغب: «الصنو: الغصن الخارج عن أصل الشجرة»[٣]- يعنى مُتفرِّع منها.

وفى القراءات:

﴿ ... وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ... ﴾ من الآية رقم ٤ .

فابن كثير وغيره برفع الأربعة، فرفع زرع ونخيل بالعَطف على قِطع، ورفع صنوان لكونه تابعًا لِنخيل، وغير لعطفه عليه..»[٤]- والمعنى واحد.

ب - المناسبة:

لما ذكر سبحانه فى الآية رقم ١٠٥ من سورة يوسف - ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ - بدأ يُفصل هنا

(١) تفسير أبى السعود جـ٣ ص١٤٦ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر ص٢٦٩ .

(٣) مفردات الراغب ص٢٩٥ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٦٩ .

فى سورة الرعد، بعض مواضع هذه الآيات ـ كرفع السماوات بغير عمد، وتسخير الشمس والقمر ومَدِّ الأرض وإلقاء الرواسى فيها والأنهار وما إلى ذلك.

جـ ـ التفسير للآيات من أول رقم ١ إلى آخر رقم ٤ من سورة الرعد:

ـ قوله تعالى: ﴿الٓمٓر...﴾ من الآية رقم ١ فى السورة.

افتتحت سورة الرعد ببعض الحروف المقطعة، وسَبَقَتها فى هذا المضمار فى المصحف: سُور البقرة وآل عمران والأعراف ويونس وهود ويوسف.

وتُقْرأ بأسمائها ساكنة، فيقال «ألفْ لامْ مِيمْ رَاءْ».

وهذه الحروف المقطعة التى وردت فى افتتاح بعض السور، على سبيل الإيقاظ والتنبيه، لإعجاز القرآن، وتِبيان أن نزوله من عند الله تعالى حق لا شك فيه.

فكأن الله تعالى يقول لأولئك المعارضين، إن القرآن من عند الله، وهاكم القرآن تَرونه مُؤَلَّفًا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم، ومَنْظومًا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم.

فإن كنتم فى شك من كونه مُنزلاً من عند الله، فهاتوا مِثله، وادعوا من شئتم من الخلق، لكى يعاونوكم فى ذلك، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله، فهاتوا عشر سور من مثله، فإن لم تستطيعوا فهاتوا سورة واحدة من مثله، أو بآية واحدة.

ومع كل هذا التساهل معهم فى التحدى، فقد عجزوا وانقلبوا خائبين، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى.

وحروف التهجى هذه التى وردت فى فواتح بعض السور، قد تكون مُفردة بحرف واحد، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة.

وهناك سورتان بُدئتا بأربعة أحرف وهما الرعد ﴿الٓمٓر﴾ والأعراف ﴿الٓمٓصٓ﴾.

ومما قيل فى هذه الحروف المقطعة:

«قال الصديق رضى الله تعالى عنه: لكل كتاب سِر، وسر القرآن أوائل السور، وقال الشعبى: سر الله تعالى فلا تطلبوه»(١).

يعنى الله أعلم بمراده.

ومجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعٌ وعشرون سورة.

وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور، ويمكن إجمال الخلاف فى رأيين:

الأول: يرى أصحابه أن المعنى المقصود منها غير معروف فهى من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بتمام علمه فإن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى، وهى سر الله فلا تطلبوه.

ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس؛ لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل.

(١) تفسير الآلوسى جـ١ ص١٠٠ .

وقد أُجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم يَنْتف الإفهام عنها عند كل الناس.

الرأى الثانى:

يرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم، وأصحابه اختلفوا فيما بينهم فى تعْيين المعنى المقصود على أقوال أهمها:

١ ـ أن هذه الحروف أسماء لِبعض السور مثل ص، ق، يس.

ولا يخلو هذا القول من الضعف، لأن كثيراً من السور قد افتتحت بِمُفْتَتَح مُشترك مثل ﴿الٓمٓ﴾، والغرض من التسمية رفع الاشتباه.

٢ ـ وقيل إن هذه الحروف قد جاءت فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى وذلك فى السور التى بُدئت بالحروف المقطعة، فهذه الحروف المقطعة جاءت فى أوائل بعض السور ولم تأت فى وسطها أو آخرها.

٣ ـ وقيل إن هذه الحروف المقطعة بعضها من أسماء الله تعالى وبعضها من صفاته فمثلا ﴿الٓمٓ﴾ أصلها أنا الله أعلم وهكذا.

يقول الزجاج:

«وروى أن معنى الحروف المقطعة: أنا الله أرى، ورُوى أنا الله أعلم وأرى، ورُوى أن ﴿الٓمٓر﴾ حروف تدل على اسم الرَّب جل جلاله»[1]ـ والله تعالى أعلم.

٤ ـ وقيل إنها اسم الله الأعظم إلى غير ذلك من أقوال.

(١) معانى القرآن وإعرابه للزجاج جـ٣ ص١٣٥ .

٥ ـ وإذا جمعنا هذه الحروف التى فى أوائل بعض السور وتحاشَيْنا المكرر منها، يخرج لنا منها عِبارة (نص حكيم قاطعٍ له سِر).

٦ ـ ولعل أقرب الآراء إلى الصواب، أن يُقال إن هذه الحروف المقطعة، قد وردت فى افتتاح بعض السور للإشعار، بأن هذا القرآن الذى تَحدَّى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يَعرفونها، ويقدرون على التأليف منها، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله؛ فذلك لِبلوغه فى الفصاحة والحكمة مَرْتبة يقف فصحاؤهم وبُلغاؤهم دُونها بِمراحل شاسعة، وفضلاً عن ذلك فإن تصْدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة، يَجْذب أنظار بعض المعرضين عن استماع القرآن، حين يُتلى عليهم إلى الإنصات والتَّدبر؛ لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة بألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يُراد منها؛ فيسمعوا حِكمًا وحججًا ومواعِظ، سِيقت فى أسلوب جزل مُشَوِّق، قد تكون سببًا فى هدايتهم واستجابتهم للحق بمشيئة الله تعالى.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ .. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ.. ﴾ من الآية الأولى من سورة الرعد.

ـ و(تلك) اسم إشارة، والمشار إليه الآيات والمراد بها، آيات القرآن الكريم البالغ حد الإعجاز، ويدخل فيها آيات السورة التى معنا ـ تلك آيات القرآن البالغ حد الكمال والرِّفعة، أنزله سبحانه على نبيه، صلوات ربى وتسليماته عليه؛ لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية الجهلاء إلى نور الإسلام والضياء بإذنه تعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿ ... وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ... ﴾ ـ من الآية الأولى من سورة الرعد كذلك.

وذلك تقوية لِشأن القرآن الكريم، ورَدًّا على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين.

أى وكل القرآن الذى أُنزل إليك من ربك حق لا شك فيه، وهذا كالإجمال بعد التفصيل، لما تقدم فى وصف السورة بالكمال، فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال، عَمَّم هذا الحكم فأثبته للقرآن جميعه؛ فلا تختص به سورة دون أخرى.

يعنى أن تلكم الآيات التى نَقرؤها عليك يا محمد صلى الله عليك وسلم فى هذه السورة، هى آيات الكتاب الكريم، وما أنزله الله تعالى عليك فى هذا الكتاب هو الحق الخالص، الذى لا يلتبس به باطل، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. مِن رَّبِّكَ .. ﴾ من الآية الأولى مِن السورة؛ هى مزيد من التلطف فى الخطاب مع النبى ﷺ ـ فكأنه سبحانه يقول له: إن ما أنزل عليك من قرآن، هو من عند ربك الذى تعهدك بالرعاية والتربية، حتى بلغت درجة الكمال؛ وكان فَضْل الله عليك عظيما.

واسم الموصول فى قوله: ﴿ .. وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ... ﴾ ﴿ .. وَالَّذِي .. ﴾ مبتدأ، والجملة بعده صِلة، و﴿ .. الْحَقُّ .. ﴾ هو الخبر.

ـ قوله تعالى: ﴿ ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ـ آخر الآية رقم١ من سورة الرعد.

هذا استدراك لِبيان موقف أكثر الناس من هذا القرآن، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أى: لقد أنزلنا عليك يا محمد (صلى الله عليك وسلم) هذا القرآن بالحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به ولا يُصدقون لانْطماس بصائرهم، واستيلاء العِناد على نفوسهم.

وفى هذا الاستدراك مدح لِتلك القِلَّة المؤمنة من الناس، الذين فتحوا قلوبهم للحق، واعتصموا بِحبله؛ فصاروا خير أمة أُخرجت للناس.

٣ ـ ثم أقام سبحانه ـ الأدلة المتنوعة ـ عن طريق المشاهدة الملموسة ـ على كمال قدرته، وعلى وجوب إخلاص العِبادة له.

فقال سبحانه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا... ﴾ ـ من الآية رقم ٢ من سورة الرعد.

ويضرب القرآن مثلين للحق والباطل.

فالماء ينزل من السماء؛ فتسيل به الأودية والشِّعاب، ثم هو يجرف فى طريقه الغُثاء والأعْشاب فيطفو على وجه الماء الزَّبَد والرَّغْوة.

فالزبد والرغوة تَذهبان هَباءً، هكذا الباطل، أما الحق الذى ينفع الناس فيمكث فى الأرض بمشيئة الله جل فى علاه.

والله سبحانه رفع السماوت بِغير عَمَد.

والعُمُد: السَّوارى جمع سارِية، والعُمُد واحدها عمود وهو ما تُقام عليه القبة أو البيت.

وجملة ﴿ .. تَرَوْنَهَا .. ﴾ ـ فى محل نصب حال من السماوات.

أى أن الله جَلَّ فى عُـلاه، هو الذى رفـع هذه السـمـاوات السَّـبع الهائلة، بِغير سَنَد يَسْندها، وبِغير أعْـمدة تعتمد عليها، ونحن نرى ذلك بأعْيُننا، أو بالعدسات والأجهزة الإلكترونية.

وخلْق السمـاوات على هذه الصورة من أكبـر الأدلة، على أن لِهذا الكون خالِقًا قادرًا حكيمًا، هو المستحق للعبادة والطاعة.

ـ قوله تعالى: ﴿ ... ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ... ﴾ ـ من الآية رقم٢.

استواء يليق بذاته تعـالى وعظمته بلا كيف ولا انحصار ولا تـشبيه ولا تمثيل، لاستحالة اتصافه سبحانه بِصفات المحدَثين.

يقول المراغى: «ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم، استواء يليق بعظمته وجلاله، يُدبِّر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، وإرادته وحكمته من إِحكام وإِتقان»[1]. والله غالب على أمره.

ويقول الرازى:

«المراد اسـتواؤه على عـالم الأجـسام، بـالقهـر والقـدرة والتدبيـر والحفظ.

يعنى أن من فـوق العـرش، إلى ما تحت الثَّـرَى فى حِـفْظه، وفى تدبيره والاحتياج إليه»[2]ـ سبحانه فالكل فى قبضته وتصرُّفه.

ـ ثم بَيَّن سبحانه، بعض مظاهر نِعمه على عباده فقال:

﴿ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى... ﴾ من الآية رقم ٢ من سورة الرعد.

---

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٣٨ .

(٢) مفاتح الغيب للفخر الرازى جـ١٠ ص٦ .

والتسخير هو التذليل والخضوع لِمنافع الناس.

أى أن من مظاهر فضله سبحانه: تسخير هذه الكائنات الشمس والقمر، لِقدرته بأن جعلهما طائعين لما أراده منهما بالسير فى منازل مُعَيَّنة، ولأجل مُعين مُحدد لا يتجاوزانه ولا يتعديانه، بل يقفان عِند نهاية المُدَّة التى حددها سبحانه، لِوقوفهما وأُفولهما يسيران فى المنازل والدرجات بحساب منتظم غاية فى الإبداع والإتقان.

ـ ثم ختم سبحانه الآية الكريم بقوله تعالى:

﴿ ... يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٢ من سورة الرعد.

قوله تعالى: ﴿.. يُدَبِّرُ الأَمْرَ..﴾ ـ «أى أمر العالم العلوى والسفلى»(١).

والمراد أنه سبحانه يقضى ويقدر ويتصرَّف فى ذلك على أكمل الوجوه وأحكمها.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. يُفَصِّلُ الآيَاتِ..﴾ ـ أى يُنزلها ويُبينها مُفصَّلة.

والآيات جمع آية، والمراد بها هنا، ما يشمل الآيات القرآنية، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته سبحانه.

أى أنه سبحانه يقضى، ويقدر ويتصرف فى أمر خلقه على أكمل الوجوه، وأنه تعالى ينزل آياته القرآنية واضحة مُفَصَّلة، ويسوق الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته بطرق شتى.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص٨٩ .

ـ وقوله تعالى: ﴿... لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٢ من سورة الرعد.

وقد فعل سبحانه ما فعل فى رَفْعِه السماء بلا عمد، ومن تسخيره الشمس والقمر، ومن تدبيره لأمور خلقه، ومن تفصيله صنوف الآيات؛ لعلكم عن طريق التأمل والتفكر فيما خلق، توقنون بِلقائه، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة، لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم، لِيحاسبكم على أعمالكم وما قدمتم وما أخرتم.

وفى قوله سبحانه: ﴿... يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ..﴾ بِصيغة المضارع، وقال قبل ذلك ﴿.. رفع السماوات وسخر الشمس والقمر..﴾ بصيغة الماضى.

وذلك لأن التدبير للأمور، والتفصيل للآيات يتجددان بتجدد تعلق قدرته سبحانه بالمقدورات.

وأما رفع السماوات، وتسخير الشمس والقمر، فهى أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة ـ فسبحانه من قادر مقتدر.

٤ ـ وبعد أن ذكر سبحانه بعض مظاهر قدرته فى عالم السماوات، أتبعه بذكر بعض المظاهر فى العالم الأرضى.

فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ...﴾ من الآية رقم ٣ من سورة الرعد.

والمد البَسْط، «ومَدَّ الحبل وغيره فامتد، ومن المجاز امتد النهار والظِّلُّ، وظل ممدود، وممتد، ومَدَّ الله الظل»[1]ـ ومنه ظل مديد أى متَّسِع.

(١) أساس البلاغة للزمخشرى جـ٢ ص٣٧٢ .

والرواسى: الجبال، مأخوذ من الرسو، وهو ثبات الأجسام الثقيلة، وأرسيت الوتد فى الأرض إذا أثبته فيها.

ولفظ (رواسى) صِفة لموصوف محذوف.

والأنهار: جمع نهر، وهو مجرى الماء العَذْب، ويطلق على الماء السائل الذى يجرى على الأرض مع انحدارها، إلى أن يصب فى نهر آخر أو بحر أو محيط أو بُحيرة أو يذوب فى الصحراء.

والمراد بالثمرات جمع ثمرة هى وأشجارها، وتشمل الفواكه والحبوب وغيرها، وذكرت الثمرات وحدها؛ لأنها هى موضع المِنَّة والمنفعة والعِبرة.

والمراد بالزوجين: الذكر والأنثى من كل الكائنات، حتى فى الكهرباء سالب وموجب.

وقيل المراد بهما الصنفان فى اللون، أو فى الطعم أو فى القدر وما شابه ذلك.

فبعد أن ذكر سبحانه، الدلائل السماوية على وحدانيته وكمال قُدرته، أَرْدفها بالأدلة الأرضية.

والمعنى: فهو الذى مَدَّ الأرض، وبَسطها طولاً وعرضًا، فجعلها مُتسعة ومُمتدة فى الطول والعرض، لتثبت عليها الأقدام، ويتقلَّب عليها الحيوان، وينتفع الناس بِخيراتها وزَرْعها وضَرْعها، وبما فى باطنها من معادن، ويسيرون فى أكنافها يبتغون رزق ربهم منها.

ولاشك أن الأرض لِعظم سطحها هى فى رأى العَيْن كذلك، ممتدة مُنْبسطة شاسعة واسعة، وهذا لا يمنع كرويتها، التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب.

وجعل فى هذه الأرض جِبالاً ثوابت راسخات لِتمسكها من الاضطراب، وجعل فيها أيضًا أنهارًا؛ لينتفع الناس والحيوان وغيرهم بها.

وجعل فيها من كل أنواع الثمرات الذكر والأنثى، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة، كأغلب الأشجار.

«وقد يكون عضو التذكير فى شجرة، وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل، وقد يكون العُضوان فى شجرة واحدة كالقطن»[1].

وهذا من عجيب صنع الله جل فى علاه.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ ... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ... ﴾ من الآية رقم ٣ من سورة الرعد.

وذاك بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته، ورحمته بِعباده.

فمن مظاهر قدرته جل وعلا، أنه يجعل الليل غاشيًا للنهار، فيلبس النهار ظُلمة الليل، فيصير الجو مُظْلما، بعد أن كان مُضيئًا، فكأنه وضع عليه لِباسًا من الظلمة، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار، فيصير الجو مُضيئًا، وكل هذا لِتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار، أو بالبحث على المعايش والأرزاق.

ـ ثم ختم سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣ من سورة الرعد.

---

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٣٩ بتصرف.

«فجعل الأشياء المذكورات، ظروفًا لآيات؛ لأن كُلَّ واحدة من الأمور المذكورة، تتضمن آيات عظيمة يَجْلوها النظر الصحيح، والتفكير المجرد عن الأوهام»[١].

إن فى ذلك الذى فعله الله تعالى ـ من بسط الأرض طولاً وعرضًا، ومن تثبيتها بالرواسى، ومن شقها بالأنهار، لآيات باهرات، ودلائل ظاهرات على قدرة الله تعالى ورحمته بِعباده، لِقوم يُحسنون التفكر، ويُطيلون التأمل فى ملكوت السماوات والأرض.

يقول تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾[٢].

أى قل لهم يا محمد (صلى الله عليك وسلم) ـ قل للناس جميعًا، انظروا نظر تفكر واعتبار، ما الذى فى السماوات والأرض من الآيات الدالات على وحدانيته، وكمال قدرته سبحانه وتعالى.

٥ ـ ثم ساق سبحانه مظاهر أخرى لِقدرته تعالى فقال:

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ...﴾ ـ من الآية رقم ٤ الرعد.

وجملة ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جملة مستأنفة.

والقِطَع: جمع قِطعة بكسر القاف، وهى الجزء من الشىء، تشبيهًا لها بما يُقتطع من الشىء.

وفى الأرض بِقاع كثيرة مُختلفة الأوصاف، «منها ما هو عامر، ومنها ما هو غير عامر»[٣]، يعنى منها ما هو منتشر فيه العمار، ومنها ما هو صحراء جرداء.

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٣ ص٨٥ .

(٢) من الآية رقم ١٠١ من سورة يونس.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٤٦ .

ومُتجاورات أى مُتلاصقات ومُتقاربات من بعضها البعض.

ويقول ابن كثير: «أراض يُجاور بعضها بعضًا، مع أن هذه طيِّبة، تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سَبِخة مالحة، لا تُنبت شيئًا، وهذه تُربتها حمراء، وتلك تربتها سوداء، وهذه مُحَجَّرة وتلك سهلة منبسطة، والكل مُتجاورات، فهذا كله يدل على الفاعل المختار»[1] جل فى علاه وذاك من صنع الله، وعظيم تدبيره فى خَلْقه.

وقوله سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ...﴾ من الآية ٤ الرعد.

بإعادة اسم الأرض الظاهر، ولم يقل: «وفيها قطع مُتجاورات» وذلك ليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة بإذن الله.

وقوله سبحانه: ﴿... وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ....﴾ - من الآية رقم ٤ من سورة الرعد.

وذلك بيان لِمظهر آخر من مظاهر قدرته سبحانه، ورحمته بِعباده.

والجنات: جمع جنة، والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف الملتف الأغصان، الذى يُظلل ما تحته ويستره.

والأعناب: جمع عنب، وهو شجر الكَرْم أو الكروم، وهى أنواع منها البناتى والبذرة والملوكى وغيرها.

والمراد بالزروع: أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطُعومها، وصِفاتها من طعام للإنسان والحيوان والطير وما شاكل ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٠٠ بتصرف.

وقوله: صنوان، صِفة لِنخيل وهو جمع صِنو.

والصِّنو: الفرع الذى يجمعه مع غيره أصل واحد، فإذا خرجت نخلتان أو أكثر من أصل واحد؛ فكل واحد منها يُطلق عليها اسم صنو.

«والاثنان صنوان بكسر النون، والجمع صنوان برفعها»[١].

والصنو بمعنى المِثل، ومنه قيل لِعم الرجل: صنو أبيه، أى مِثله.

وأطلق على كل غصن صِنو، لِمماثلته للآخر فى التفرع من أصل واحد.

وفيها نخيل صِنوان يجمعها أصل واحد، وتتشعب فروعها، وغير صنوان، أى متفرقات مختلفات الأصول.

والأُكل اسم لما يُؤكل من الثمرات والحبوب بمختلف أنواعها.

والمعنى أن مظاهر قدرة الله تعالى أيضًا، ومن الأدلة على وحدانيته سبحانه، أنه جعل فى الأرض بِقاعًا كثيرة، مُتجاورة، ومع ذلك فهى مُختلفة فى أوصافها وفى طبيعتها، فمنها صالحة خِصْبة، ومنها سَبِخة غير خصبة وما إلى ذلك.

وفى الأرض أيضًا بساتين كثيرة من أعناب، ومن كل أنواع الحبوب.

وفيها كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فهى صنوان، ونخيل أخرى لا يجمعها أصل واحد، فهى غير صنوان.

والكل من الأعناب والزرع والنخيل وغيرها يُسْقى بماء واحد، لا اختلاف فى ذاته، سواء أكان السَّقْى من ماء الأَمْطار أم من ماء الأنهار

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٤ ص١٠٠.

والآبار والعيون وغيرها، ومع وجود أسْباب التَّشابه؛ فإنه لعظيم قُدْرة الله وإحسانه يُفَضَّل بَعْضها على بَعْض فى الأكل، يعنى فى اختلاف الطُّعُوم، فسبحانه وتعالى جَلَّت قُدرته وعظمته.

وخصَّ سبحانه النخيل بِوصفه صنوان، لأن العِبْرة به أقوى، إذ المشاهدة له أكثر من غيره.

ووجه زيادة «وغير صنوان»، هو تَجْديد العِبْرة باختلاف الأحوال، واقتصر سبحانه فى التفاضل على الأكل؛ لأنه أعظم المنافع.

- وقد ذَيَّل الحق سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ - آخر الآية رقم ٤ من سورة الرعد.

ووصفت الآيات بأنها من اختصاص الذين يعقلون، تَعْريضًا بأن من لم تنفعهم تلك الآيات؛ فَيُنَزَّلُون مَنْزِلة من لا يَعْقل.

أى إن فى ذلك الذى فَصَّله الله تعالى فيما سبق، من اختلاف أجناس الثمرات والزروع، فى أشكالها وألوانها وطُعومها، مع أنها تُسْقى بماء واحد، وتَنْبت فى أرض متجاورة، فى كل ذلك دلائل باهرة على قُدرة الله تعالى القادر، فهو صانع حكيم مُدبِّر قادر لا يُعجزه شىء، والذى بدأ هذا الكون قادر على إعادته بمشيئته، وأنه سبحانه جدير بالعبادة والتقديس والطاعة.

وتلكم هى خصائص القوم الذين يستعملون عقولهم فى التفكير السليم، والتأمل النافع المستقيم.

أما الذين يستعملون عقولهم فيما لا ينفع؛ فإنهم يمرون بالعبر والعظات، وهم عنها مُعرضون.

وعلى هذا نرى أن الله سبحـانه ساق فى هذه الآيات الكريمات أدلة متـعددة ومـتنوعة، من العـالم العلوى والسـفلى، وهى تدل على عظيم قدرته وجليل حكمته جل فى علاه، ومن هذه الأدلة:

١ ـ خلق السماوات مرتفعة بغير عمد.

٢ ـ تسخير الشمس والقمر لمنافع الناس.

٣ ـ خلق الأرض بصورة صالحـة للاستقرار عليها، والعـيش فوقها والانتفاع بها.

٤ ـ إلقاء الجبال فى الأرض لِتثبيتها واتزانها.

٥ ـ خلق الأنهار فيها لِمنفعة سائر الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات وأسماك وغيرها.

٦ ـ أوجـد سبـحـانه زوجين اثنين من كل الأنواع، من الـثمـرات والحيوانات والجمادات وغيرها بقدرته جل فى علاه.

٧ ـ التعاقب بين الليل والنهار بالسكون والحركة وانتظام الكون.

٨ ـ خلق فى الأرض - جل فى علاه - بِقاعا متـجاورة مختلفة فى الطبيعة والخواص من خِصْبة وسَبْخة وغيرهما.

٩ ـ خلق سبحانه أنواعا من الزروع مُختلفات، فى ثمارها وأشكالها وألوانها وما إلى ذلك.

١٠ ـ أوجد سبحانه النخـيل صِنوان وغير صنوان، وهى تُسْقى بماء واحد، وقد فَـضَّل جميع أنواع المزروعات بعضـها على بعض فى الأكل والطعوم، وتلكم من قدرته جل فى علاه.

وهذه الأدلة يشاهدها الناس بأبصارهم ويحسونها بحواسهم، تبصرة وذكرى لِكل عبد مُنيب.

وبذلك ينتهى المبحث الثانى، عن مظاهر قدرة الله جل فى علاه فى خلقه، ودلائل الوحدانية، والذى ضم الآيات من أول رقم ١ إلى آخر رقم ٤ فى السورة الكريمة بقوله سبحانه: ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر القدرة الإلهية، ينتقل الحديث بمشيئة الله، إلى المبحث الثالث فى بعض أقوال المشركين الفاسدة فى إنكار البعث والنبوة، والرد عليها بما يُدحضها.

المبحث الثالث

إنكار المشركين للنبوة والبعث والرّد عليهم

ويضم الآيات أرقام ٥ ، ٦ ، ٧ فى سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ.. ﴾.

إلى آخر الآية رقم ٧ بقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾.

الآيات:

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾.

تمهيد:

وبعد التدليل على مظاهر قدرة الله تعالى فى خلقه، وفى الآفاق، نورد بعض أقوال المشركين الضَّالة المُضلَّة؛ لدحضها بإذن الله تعالى.

أ ـ المفردات:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ.. ﴾ ـ من الآية رقم ٥ من سورة الرعد.

يقـول الراغب: «العَجَب والتَّـعَجب، حـالة تعرض للإنسـان عند الجهل بسبب الشـىء، ولا يصـح على الله التعـجب فهو علام الغيوب لا تخفى عليه خافية»[١].

إذن فالتعجب، تغيير النفس حين رُؤية ما يُسْتبعد فى مجرى العادة.

ـ قوله تعالى: ﴿ ... وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ... ﴾ ـ من الآية رقم٥.

يقـول الراغب: «فالغُلُّ مُـخْتص بما يُقَـيَّد به، فـيجـعل الأعضـاء وَسَطَه، وجمعه أغلال، وغُلَّ فلان قُيِّد بالأغلال»[٢].

فالأغلال واحدها غُلٌّ، وهو طوق من الحديد يُحيط بالعنق.

ـ قوله تعالى: ﴿ ... وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ... ﴾ من الآية رقم٦.

يقول الراغب: «وصف شىء أو المشابهة»[٣] لِشىء.

واحدها: مَثُلة بفتح فضم، وهى «العقوبة التى تترك فى المُعاقَب أثرا قبيحا، كصَلْم أذن، أو جذع أنف، أو سَمْل عَيْن»[٤]ـ وغير ذلك.

ـ قوله تـعالى: ﴿ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ... ﴾ من الآيـة رقم٦.

«والغَفْر: السَّتر بالإمهال وتأخير العِقاب»[٥].

---

(١) مفردات الراغب ص٣٣٣ .

(٢) مفردات الراغب ص٣٧٥ .

(٣) مفردات الراغب ص٤٨٢ .

(٤) تفسير المراغى جـ٥ ص٤١ .

(٥) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

وإن ربك لذو صفح عظيم للناس، لا يُعجل لهم العقوبة، وإن كانوا ظالمين، بل يُمْهلهم بتأخيرها.

«والغُفْران والمغفرة من الله تعالى، هو أن يَصون العبد من أن يمسه العذاب»[1]- فهو سبحانه واسع المغفرة للناس على ظلمهم.

ب- المناسبة:

يعد أن ذكر سبحانه إنكار الجاحدين لِوحدانيته تعالى، مع وضوح الأدلة على ذلك، من خلق السماوات بلا عمد، وتسخير الشمس والقمر يجريان لأجل مُسمى، ومن بسط الأرض، وإلقاء الجبال الرواسى فيها - إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة، على عظيم قدرته وبديع صُنْعه لمن يتأمل ويتفكر فى ذلك الملكوت العظيم، ذكر بعد ذلك هنا إنكارهم للبعث والنشور، وردَّ عليها بما يُدْحِضها.

جـ- التفسير للآيات من أول رقم ٥ إلى آخر رقم ٧:

١ - قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعْجَبْ**..﴾ من الآية رقم ٥ سورة الرعد.

أى إن يقع منك عجب يا محمد «صلى الله عليك وسلم» ﴿..**فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ**...﴾ - من الآية رقم ٥ سورة الرعد.

بعد مشاهدة الآيات الدالة على عظيم قدرته تعالى.

أى فليكن عجبك من قولهم: ﴿..**أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا**...﴾ من الآية ٥ فإن ذلك، هو الذى ينبغى أن يُتعجب منه.

«ورفع (عجب) - على أنه خبر مُقدم و(قولهم) مُبتدأ مؤخر، وقُدم الخبر للقَصْر»[2]- وهذا من البلاغة بمكان.

---

(١) مفردات الراغب ص٣٧٤ .

(٢) روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٠٤ .

والتنكير فى قوله: فعجب للتهويل والتعظيم.

والخطاب لكل من يصلح له، أى وإن تعجب أيها العاقل لشىء، بعد أن شاهدت مظاهر قدرة الله تعالى فى هذا الكون، فازدد تَعَجُّبًا ممن ينكر بعد كل هذا قدرته سبحانه على إحياء الموتى.

ـ وجملة ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾ من الآية رقم٥.

«فى محل نصب مَقُول القَول، لقول مَحكى به، والاستفهام إنكارى، مُفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار»[(١)].

أى وإن تعجب من شىء أيها المخاطب، فاعجب من قول أولئك المشركين، أئذا صرنا تُرابا وعظامًا نَخِرة بعد موتنا.

أئنا بعد ذلك لَنُعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد.

والاستفهام للإنكار، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم، كما حكى القرآن عنهم بقوله: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[(٢)].

أى أئذا متنا، واستحالت أجسادنا إلى تراب، هل سَنَحْيا ونرْجع كما كنا، فذلك رجوع بعيد غاية البعد، مستحيل حصوله.

وتكرير همزة الاستفهام فى قوله أءذا كنا ترابا، وفى قوله أءنا لفى خلق جديد ـ لتأكيد هذا الإنكار.

---

(١) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.
(٢) الآية رقم [٣] من سورة قٓ .

- ثم بين سبحـانه بعد ذلك جزاءهم على هذا القول الباطل، فقال تعالى: ﴿... أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ...﴾ من الآية رقم ٥.

أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم، وكَذَّبوا رسوله على ما عاينوا من آيات الله الكبرى، التى ترشدهم إلى الإيمان وتهديهم سبيل الرشاد لو كانوا يُبصرون، وهم الذين تمادوا فى عِنادهم وكـفرهم؛ فإن إنكار قدرته تعالى، هى إنكار له لأن الإله لا يكون عاجزًا حاش لله.

- وقوله تعالى: ﴿... وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ...﴾ من الآية رقم٥.

والأغلال جَمْـع غِل وهو قيد من حديد، تُشـد به اليد إلى العنق، وهو أشد أنواع القيود.

وأولئك مُقـيدون بسلاسل وأغلال من الضـلال، تصدهم عن النظر فى الحق.

وأولئك هم الذين تُوضع الأغلال والقيـود فى أيديهم وأعناقهم يوم القيـامة، عندما يُساقون إلى النار بِذلَّة وقـهر بسبـب إنكارهم لِقدرة الله تعالى على إعادتهم إلى الحياة وبسبب جحودهم لِنعم خالِقهم ورازقهم.

وقد يكون المعنـى: إنهم يوم القيامـة عند العرض للحـساب توضع الأغلال فى أعناقهم، كما يُقاد الأسير الذليل بالغل، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(*)﴾(١).

---

(١) الآيتان [٧١ ، ٧٢] من سورة غافر.

(*) السَّجْر: تهييج النار - مفردات الراغب ص٢٢٩ .

أى حين يدخلون النار، وتُربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل، ويُسْحبون بتلك السلاسل فى الماء الحار المُسَخَّن بنار جهنم ويُحرقون فيها، والسَّجْر هو تَهْييج النار وإلهابها، والعياذ بالله.

ـ وقوله تعالى: ﴿ ... وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آخر الآية رقم ٥ من سورة الرعد.

أى وأولئك هم الماكثون فى النار دَارِ الذُّل والهوان لا يتحولون عنها، ولا يبرحونها، وما هم عنها بغائبين ـ كفاء ما سَوَّلت لهم أنفسهم من سَيِّء الأعمال، وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام.

وكرر سبحانه «اسم الإشارة ثلاثًا للتهويل»[1]ـ وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سَيَرِد بعده من عقوبات، وجاء باسم الإشارة للبعيد، للإشارة إلى بُعْد منزلتهم فى الجحود والضلال.

٢ ـ ثم حكى ـ سبحانه ـ لونًا آخر من طُغيان هؤلاء الجاحدين واستهزائهم برسولهم ﷺ فقال:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ... ﴾ ـ من الآية رقم ٦ من سورة الرعد.

والمراد بالسيئة: الحالة السيئة، كالعقوبات والمصائب التى تسوء من تنزل به.

والمراد بالحسنة: الحالة الحسنة كالعافية والسلامة والصِّحة والغِنى وما إليها.

والمثلات: جمع مثلة، وهى العقوبة الشديدة الفاضِحة التى تنزل بالإنسان، فتجعله مِثالا لِغيره فى الزَّجر والرَّدع.

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٣ ص٩١ .

ـ «وجملة (ويستعجلونك) ـ عطف على جملة (وإن تعجب) ـ لأن كلتا الجملتين، حكاية لغريب أحوالهم فى المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد، فابتدأ يذكر تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعث، ثم عطف عليه تكذيبهم بوعيد الدنيا، لتكذيبهم الرسول ﷺ»(١).

أى أن هؤلاء المشركين، بلغ بهم الحال من الطغيان، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول ﷺ بعقاب الله، إذا ما استمروا فى كُفْرهم سخروا منه، وتهكموا به، وقالوا له على سبيل الاستهزاء: ائتنا بما تَعِدنا به من عذاب، إن كنت من الصادقين.

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾(٢).

يعنى يستعجلك المشركون بالعذاب، يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) ـ وهو استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء، ولولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وَقْتًا مُحددا، لجاءهم العذاب حين طلبوه، وليأتينهم فجأة وهم سَاهون لاهون، لا يشعرون بوقت مَجِيئه حيث يأتيهم بَغْتة.

وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(٣).

أى إن كان هذا القرآن حَقًّا مُنزلا من عندك؛ فأنزل علينا حجارة من السماء، كما أنزلتها على أقوام قبلنا، أو ائتنا بعذاب مُؤلم أهلكنا به، وهذا تهكم منهم واستهزاء والعياذ بالله.

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٣ ص٩١ .
(٢) الآية رقم [٥٣] من سورة العنكبوت.
(٣) الآية رقم [٣٢] من سورة الأنفال.

والجملة الكريمة التى معنا من سورة الرعد: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ...﴾ ـ من الآية رقم ٦.

تحكى لونًا عجيبًا من ألوان توغلهم فى الجحود والضلال، حيث طلبوا من الرسول ﷺ ـ تعجيل العقوبة التى توعَّدهم بها، بدلاً من أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية.

ـ قوله تعالى: ﴿... وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ...﴾ من الآية رقم ٦.

هذه الجملة فى موضع الحال، لِزيادة التعجيب من جهلهم وطغيانهم.

أى ويستعجلونك بالعذاب، مُسْتهزئين بإنذارك، منكرين وقوع ما تُنْذرهم به، والحال أنه قد مَضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين، وهى ماثلة أمام أبْصارهم، وهم يمرون عليها فى أسفارهم، فمن أمة مُسخَت قردة، وأخرى أهلكت بالرَّجْفة والهزة الشديدة، وغيرها أُهلكت بالخَسْف كقوم لوط ونحو ذلك.

فكان من الواجب على هؤلاء المجرمين ـ لو كانوا يعقلون ـ أن يَعْتبروا بهذه الأمم التى أُهْلكت.

ـ وقوله تعالى: ﴿... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ـ نهاية الآية رقم ٦ من سورة الرعد.

«وجملة ﴿... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ...﴾ من الآية ٦ هذه عطف على جملة، وقد خلت من قبلهم المثلات السابقة.

وهذا كشف لِغرورهم بتأخير العذاب عنهم، لأنهم لما استهزأوا بالنبى ﷺ ـ وتعرضوا لِسؤال حُلُول العذاب بهم، ورأوا أنه لم يعجل لهم حلوله، اعترتهم ضراوة بالتكذيب، وحسبوا تأخير العذاب عجزًا من المتوعِّد، وكذبوا النبى ﷺ، وهم يجهلون أن الله حليم يُمْهل عِباده لَعلهم يرجعون، فالمغفرة هنا مُسْتعملة فى المغفرة المؤقتة، وهى التجاوز عن ضراوة تكذيبهم، وتأخير العذاب إلى أجل.

وسياق الآية يدل على أن المراد بالمغفرة هنا؛ التجاوز عن المشركين فى الدنيا بتأخير العِقاب لهم، إلى أجل أراده الله، أو إلى يوم الحساب»[1]ـ بمشيئة الله تعالى.

وفى هذا بيان لِرحمته تعالى بِعباده، ولِشدة عِقابه للمُصرين على الكفر والضلال مِنهم.

وفى معنى هذه الآية التى معنا: ﴿... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ...﴾ من الآية رقم ٦ الرعد.

أى وإن ربك أيها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ـ لذو مغفرة عظيمة للناس مع ظلمهم لأنفسهم، حيث أطاعوها فى ارتكاب المعاصى ومن مظاهر هذه المغفرة أنه سبحانه، لم يُعاجلهم بالعقوبة، بل صبر عليهم وأمْهلهم لعلَّهم يثوبون إليه، ويَستغفرونه ويُقْلعون عن ذنوبهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ...﴾[2].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص٩٣ بتصرف.

(٢) من الآية رقم [٤٥] من سورة فاطر.

وفى هذا بيان لِحلم الله ورحـمته بِعبـاده، أى لو يؤاخذ الله الناس بجميع ذنوبهم، ما ترك على ظهر الأرض أحدًا يدب عليها.

ـ وفى قـوله سـبحـانه: ﴿ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَـغْـفِـرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ... ﴾ ـ من الآية رقم ٦ من سورة الرعد.

وقدم سبحانه مغفرته على عقوبته، فى مقابل تعجُّل هؤلاء الكافرين بالعذاب، ليظهر الفارق الضخم بين الخير الذى يُريده سبحانه لهم، وبين الشر الذى يُريدونه لأنفسهم بسبب انطماس بصائرهم.

وإن ربك أيها الرسول الكريم ﷺ، لشديد العقاب للمصرين على كُفرهم وضلالهم ومعاصيهم.

يقول ابن كثيـر فى قوله تعالى: ﴿ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَـغْفِـرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ... ﴾ من الآية رقم ٦ من سورة الرعد.

أى إنه ذو عفو وصـفح وستر للناس، مع أنهم يظلمـون ويُخطئون بالليل والنهار.

ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، لِيـعتدل الرجاء والخوف»[١] ـ فلو وُزن خوف المؤمن ورجـاؤه لاعْتدلا، والمؤمن الحق، هو الذى يَعْـبد الله على خوف من ألا يتقبل الله منه.

٣ ـ ثم حكى سبـحانه ـ لونًا آخـر من رذائل هؤلاء المكذبين، وهو عدم اعتـدادهم بالقرآن الكريم، الذى هو أعظم الآيات والمعجـزات فقال تعـالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْـهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ... ﴾ من الآيـة رقم٧ من سورة الرعد.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٠١ بتصرف.

ولولا هنا حرف تحضيض بمعنى هلا.

أى «ويقول الذين كفروا تعنتًا وجحودًا، هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى، فإذا هى حية تسعى، أو كالتى جاء بها عيسى من إبراء المرضى وإحياء الموتى بإذن الله تعالى - أو أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ويُزيح عنا الجبال، ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا»[1] - قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولاً.

فالقرآن الكريم فى زعمهم، ليس كافيا لِيكون مُعْجزة دالة على صدقه ﷺ.

أى ويقول هؤلاء الكافرون الذين عَمُوا وصَمُّوا عن الحق واستعجلوا العذاب، هلا أُنزل على محمد ﷺ آية أخرى غير القرآن الكريم، تدل على صِدقه.

ولقد حكى القرآن مَطالبهم المتعنتة فى آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾[2].

ومعنى هذه الآية الأخيرة، أنه لما تبين إعجاز القرآن الكريم ولزمتهم الحجة وغُلِبوا، أخذوا يَتعللون باقتراح الآيات والخوارق، فقال المشركون، : لن نصدقك يا محمد صلى الله عليك وسلم، حتى تُشقق لنا من أرض مكة عَيْنًا غزيرة، لا ينقطع منها الماء، أو يكون لك بستان فيه أنواع النخيل والأعناب؛ فتجعل الأنهار تتفجر فيها وتسير وسطها بِقوة وغزارة.

---

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٤٣ .

(٢) الآيتان [٩٠ ، ٩١] من سورة الإسراء.

ومع سـيـاق سورة الـرعد، فالله تعالى رَدَّ عليـهـم ببيان وظيـفة النبى ﷺ فقال سبحانه:

ـ ﴿ .. إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ... ﴾ من الآية رقم ٧.

أى إن وظيفتك أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم) ـ هى إنذار هؤلاء الجاحدين، بسوء المصير، إذا مـا لَجُّوا فى طغيانهم، وأصروا على كُفرهم وعِنادهم، وليس من وظيفتك يا رسول ﷺ الإتيان بالخوارق التى طلبوها منك.

وإنما قَـصَـر سبحـانه هنا وظيـفة النـبى ﷺ على الإنذار لأنه هو المناسب لأحوال هؤلاء المشـركين، الذين أنكروا كون القرآن معـجزة من عند الله تبارك وتعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ آخر الآية رقم ٧.

يقول ابن عاشور فى قوله تعالى: ﴿ .. وَلِكُلِّ قَـوْمٍ هَادٍ ﴾ ـ تذييل بالأعم، أى إنما أنت مُنذر لهـؤلاء، لهدايتهم بـإذن الله، ولكل قوم هاد أرسله الله لِينذرهم، ولعلهم يهـتدون، ومـا كان الرسـول ﷺ بدعا من الرسل»(١).

أى ولِكل قوم من يهـديهم إلى الحق والرشاد، بالوسـيلة التى يراها مُناسبة لأحوالـهم بإذن الله، وأنت أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم)، قـد جئـتهم بهـذا القرآن الـهادى للتى هى أقـوم من عند الله، والذى هو خير وسـيلة لإرشاد الناس إلى ما يُسعـدهم فى دينهم ودنياهم بإذن الله.

وقـد شاء الله أن يبـعث هؤلاء الهُـداة، فى كل زمان كى لا يتـرك الناس سُدى، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لِهداية عِباده.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص٩٥.

قال القاسمى: «أو المعنى ولكل قوم هاد عظيم الشأن، قادر على هدايتهم هو الله تعالى، فما عليك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) إلا إنذارهم لا هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ...﴾[1]»[2].

أى ليس عليك يا محمد (صلى الله عليك وسلم) ـ أن تهدى الناس، فإنك لست بِمُؤاخَذ بِجرِيرة من لم يهتد، إنما أنت ملزم بِتبليغهم فحسب، والله يهدى من يشاء من عِباده إلى صراط مستقيم.

«أو المعنى: ولكل قوم هاد، أى قائد يهديهم إلى الرشد، وهو الكتاب المنزَّل عليهم الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم بإذن الله تعالى.

يعنى: أن سِرَّ الإرسال وآيته الفريدة، إنما هو الدعاء إلى الهدى، وتبصير سبيله، وقد أنزل الله عليك يا رسول الله ﷺ ـ من الهدى أحسنه، فكفى بِهدايته آية كبرى، وخارقة عظمى، وأما الآيات المقترحات فأمرها إلى الله وحده...»[3] إن شاء أرسلها وإن شاء لم يرسلها.

وبهذا ينتهى بحمد الله المبحث الثالث: فى إنكار المشركين للنبوة والبعث والرد عليهم.

---

(١) من الآية رقم [٢٧٢] من سورة البقرة.

(٢) تفسير القاسمى جـ٩ ص٣٣٢ بتصرف.

(٣) تفسير القاسمى جـ٩ ص٣٣٢ بتصرف.

المبحث الرابع

الله تعالى عليم بكل شىء

ويضم الآيات من رقم ٨ إلى آخر رقم ١١ من سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى..﴾ إلى آخر الآية رقم ١١ ـ بقوله تعالى: ﴿.. وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾.

الآيات:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

تمهيد:

بعد أن رد سبحانه فيما سبق على الكافرين وتُرَّهاتهم، أخذ بعدها يُصور سعة علمه سبحانه، تصويراً عميقًا تقشعر منه الجلود، وترتجف له المشاعر، وساق سُننه التى لا تتغير ولا تتبدل فى خلقه.

أ ـ المفردات:

ـ قوله تعالى: ﴿.. وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ...﴾ من الآية رقم ٨.

الغَيْض: النقصان ـ يقال غاض الماء إذا نقص.

يقول الراغب: «غـاض الشىء وغاضه غـيره ـ نحو نقص ونَقَـصَه غَيْرُهُ»(١).

يعنى قَلَّ وصار ضعيفًا.

ـ ومن الصور البـلاغية بين: (تغـيض الأرحام وتزداد طِباق وفيـها الجمع بين المعنى وعكسه.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ـ آخر الآية رقم ٨.

بِمقدار أى بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه.

ـ قوله تـعالى: ﴿عَـالِمُ الْغَيْـبِ وَالشَّهَـادَةِ...﴾ من الآيـة رقم ٩ الرعد.

والغائب: ما غاب عن الحس.

والشاهد: الحاضر المشاهَد.

وهناك طباق بين عالم الغيب والشهادة ـ المعنى وعكسه.

ـ قوله تعالى: ﴿.. الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ آخر الآية رقم ٩ الرعد.

الكبير: العظيم الشأن.

المتعال: المستعلِى على كل شىء سبحانه وتعالى.

ـ قوله تـعالى: ﴿.. سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ...﴾. من الآية رقم ١٠ من سورة الرعد.

أسر الشىء: أخفاه فى نفسه ولم يُظهره.

---

(١) مفردات الراغب ص٣٨٢.

وهناك طبــاق بين ﴿ .. أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ... ﴾ ـ المـعنـى وعكسه.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ آخر الآية رقم ١٠ الرعد.

والمستخفى: المبالغ فى الاختفاء وعدم الظهور.

ـ والسارب: الظـاهر من قولهم سَرَب، إذا ذهب فـى سِربه أى فى طريقه.

«فالسرب الذهاب فى حدود»[١] ـ فى الطريق.

كذلك هناك طِباق بين ﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ .. وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

ـ قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ...﴾ من الآية رقم ١١ الرعد.

أى ملائكة تَعْتَقِب فى حـفظه وكلاءته، واحدها (مُعقبـة) من عقبه أى جاءَ عقيبه.

يقول الراغب: «وعقبه: إذا تلاه عَقْبا»[٢] ـ بعده.

ـ ﴿ .. مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ .. ﴾: أى قُدَّامه.

ـ ﴿ .. وَمِنْ خَلْفِهِ... ﴾: أى من ورائه.

ـ ﴿ .. يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ... ﴾ ـ أى بأمره وإعانته سبحانه.

ـ ﴿ .. وَالٍ .. ﴾ ـ أى ناصر.

يقول الراغب: «والولاية النُّصْرة»[٣] ـ لنصر الحق.

(١) مفردات الراغب ص٢٣٤.

(٢) مفردات الراغب ص٣٥٢.

(٣) مفردات الراغب ص٥٧٠.

ب ـ المناسبة:

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث، واستبعادهم له كما فى قوله تعالى: ﴿.. أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾[1].

يعنى إذا تفتت الجسم، وذهب شتى بعد الموت، فمنهم من أكلته الحيوانات أو الأسماك أو غيرها، ومنهم من غرق فى البحار، ومنهم من دُفن فى بلد آخر.

أزال سبحانه هذا الاستبعاد، بأن الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، يعلم ما هو مشاهد لنا، أو غائب عنا، يعلم تلك الأجزاء المتناثرة، ومواضعها مهما نأى بعضها عن بعض؛ فيضم سبحانه متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى بإذنه تعالى.

لذلك تسترسل الآيات موضحة هذه القضايا، التى تدل على قدرة الله الواحد الأحد.

جـ ـ التفسير للآيات من أول رقم ٨ إلى آخر رقم ١١ من سورة الرعد:

١ ـ قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ...﴾ من الآية رقم ٨ من سورة الرعد.

هنا كلام مُسْتأنَف، مسوق لِبيان كمال علمه وقدرته سبحانه.

«وهو جواب عن سؤال من يقول: لماذا لم يُجابوا إلى المقترَح؛ فتنقطع حجتهم ولعلهم يهتدون؟»[2]ـ إن شاء الله تعالى.

---

(١) من الآية رقم [٥] من سورة الرعد.

(٢) تفسير الآلوسى جـ١٣ ص١٠٧.

وهنا شروع فـى بيان ما يدل على كـمال عِلْمـه وقدرته، وشـمول قضائه وقدره، تنبيها على أنه تعالى قادر على إنزال ما اقترحوه، «وإنما لم ينزله لِعلمه بأن اقتراحهم لِلعناد، دون الاسترشاد، وأنه سبحانه قادر على هدايتهم، وإنما لم يهدهم، لسبق قضائه عليهم بالكفر»[١]ـ لِحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى.

«ويعلم هنا مُـتعـدية لِواحد، لأن المراد تعلق العلم بالمـفردات»[٢]. الشتى.

ـ وقوله تـعالى: ﴿ .. مَـا تَحْـمِلُ كُلُّ أُنثَى... ﴾ «ما مـصدرية أو موصولة اسمية أى تحمله»[٣]ـ كل أنثى من بشر أو حيوان.

أى أن الله وحده هو الذى يعـلم ما تحمله كل أنثى فى بـطنها، من علقة أو مُضغـة، وهو وحده الذى يعلم ما يكون فى داخل الأرحام، من نقص فى الخلقة، أو زيادة فيها، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيه، على اختلاف الفقهـاء فى ذلك، ومن نَقْص فى عدد الأجنة وزيادة فيها، وحسن وقبح وطول وقصر ورزق وأجل وشقى أم سـعيد ـ مِصداقًا لِقوله سبحانه: ﴿ .. وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ... ﴾[٤].

وتلكم من الغيبيات التى أشار إليها الحديث:

قال رسـول الله ﷺ: **«مفاتيح الغيب خَـمْس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما فى غَدٍ إلا الله، ولا يعلم مـا تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى**

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٤ ص١٠٤.

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٤) من الآية رقم [٣٤] من سورة لقمان.

يأتى المطر أحد إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[١]- وهى تلك المذكورات فى آخر سورة لقمان: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...**﴾[٢].

فهو سبحانه الذى يَعْلم ما يحدث فى الغد علمًا قديمًا، ويعلم الأجنة ووصفها فى الأرحام ومتى تُولد أو تسقط، ويعلم مِقدار وزمان ومكان المطر، وهل هو ضار أم نافِع، ويعلم مكان وزمان موت كل حَىٍّ، ويعلم متى تقوم الساعة، وكل ذلك لِحكم بالغة هو أدرى بها سبحانه.

- وقوله تعالى: ﴿**.. وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ - آخر الآية رقم ٨ من سورة الرعد.

أى وكل شىء عنده سبحانه بقدر وحَدٍّ، لا يجاوزه ولا ينقص عنه حسب قابليته، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٣].

أى وكل شىء من الأشياء عند الله تعالى، بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة - فخلق كل شىء مُقَدَّرًا مكتوبًا فى اللوح المحفوظ من الأزل.

وقوله تعالى: ﴿**.. وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾[٤].

---

(١) صحيح البخارى جـ٤ - طبعة دار ابن كثير / ٦٨ - التفسير لِسورة الرعد / ١٨٦ باب قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى...**﴾ رقم ٤٤٢٠ عن ابن عمر رضى الله عنهما ص١٧٣٣.

(٢) من الآية رقم [٣٤] من سورة لقمان.

(٣) آية رقم [٤٩] من سورة القمر.

(٤) من الآية رقم [٢] من سورة الفرقان.

أى أوجد كل شىء بِقدرته مع الإتقان والإحكام، فالخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم، والتقدير عبارة عن إتقان الصنعة، وتخصيص كل مخلوق بِمقداره وزمانه ومكانه وأجله، وغير ذلك بِحكمة وتدبير.

٢ ـ وجملة ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...﴾ من قوله تعالى فى الآية رقم ٩ من سورة الرعد.

«هى تذييل لِتعميم العلم بالخفيات والظواهر، وهما قِسما الموجودات»[1]ـ يعنى كُلَّ ما هو موجود.

والغيب: مَصْدر غاب يَغيب، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب، وهو ما لا تدركه الحواس، ولا يُعلم ببداهة العقل.

والشهادة: مصدر شَهِد يَشهد، وهى هنا بمعنى الأشياء المشهودة، فهى مَصْدر بمعنى المفعول، وهى الظواهر المحسوسة من جميع الموجودات.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. الْكَبِيرُ..﴾ من الآية رقم ٩ من سورة الرعد.

«مجاز فى العظمة»[2]ـ فهو العظيم الشأن، الذى كل شىء دُونه.

«ورفع الكبير لأنه خبر بعد خبر»[3]ـ وهذا من صور البلاغة.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. الْمُتَعَالِ﴾ ـ آخر الآية رقم ٩ من سورة الرعد.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص٩٨.

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١١٠.

يعنى: (المترفع)[١]ـ وهو المستعلى على كل شىء، فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله سبحانه، بقدرته وجبروته، وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته.

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه.

وهو سبحانه وحده، الذى يَعْلم أحوال الأشياء الغائبة عن الحواس، كما يعلم الأحوال المشاهدة منها، وهو العظيم الشأن المستعلى على كل شىء.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ الآية رقم ١٠ من سورة الرعد.

وسواء: اسم مصدر بمعنى الاستواء، والمراد به هنا اسم الفاعل أى مستوٍ، سواء حدث هذا أو حدث ذاك؛ فيقتضى ذكر شيئين.

«وسواء ممكن أن تكون خبر مُقدم، ومن أسر ومن جهر هو المبتدأ.

و(مِنكم) يحتمل أن تكون وَصْفًا لِسواء. وجاز أن يكون سواء مبتدأ، وجاز الابتداء به لِوصفه بقوله منكم»[٢]ـ فهى نكرة موصوفة، وهذه النواحى الإعرابية المتعددة من البلاغة بمكان.

«وإسرار القول ما حَدَّث به المرء نفسه، والجهر ما حَدَّث به غيره، والمراد بذلك أن الله سبحانه يَعلم ما أسره الإنسان من خير أو شر، كما يعلم ما جَهر به من خير أو شر»[٣]ـ فهما سواء عند الله تعالى ـ كما فى

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٣ ص٩٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٦ ص٢٥٣ والفتوحات الإلهية للجمل جـ٤ ص١٠٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٥٣.

قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[١]- فما تخفيه في نفسك، فهو سواء عند ربك فهو يعلم السر وما هو أخفى منه، كالوسوسة والهاجس والخاطر، وهو معنا أينما كنا، وهو يعلم ما توسوس به نفوسنا سبحانه وتعالى.

- وقوله تعالى: ﴿.. وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ...﴾ - من الآية رقم ١٠ من سورة الرعد.

فهو سواء عنده كذلك، من هو مستتر في ظلمة الليل، فهو يعلمه ليلاً أو نهاراً سواء بسواء.

- وقوله تعالى: ﴿.. وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ آخر الآية رقم ١٠.

وسارب بالنهار يعني ظاهر بالنهار، يُقال سَرِب في الأرض يَسْرب سربًا وسُروبًا، أي ذهب في سِربه بسكون الراء وكسر السين وفتحها، يعني ذهب في طريقه، فكلاهما عند الله سواء.

والمعنى أنه تعالى: مُسْتوٍ في علمه، من أسر منكم القول، بأن أخفاه في نفسه، ولم يتلفظ به، ومن جهر منكم بهذا القول بأن أعلنه لِغيره.

ومستو في علمه - أيضا - من هو مستتر في الظلمة الكائنة في الليل، ومختف في عقر داره، ومن هو ذاهب في سربه وطريقه بالنهار، بِحيث يبصره غيره.

وذكر سبحانه الاستخفاء مع الليل، لِكونه أشد خفاء، وذكر السروب مع النهار، لِكونه أشد ظهوراً.

---

(١) الآية رقم [٧] من سورة طه.

٤ ـ ثم بين سبحانه بعض مظاهر رعايته لعباده، فقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ...﴾ ـ من الآية رقم١١ من سورة الرعد.

يقول الشوكانى: «الضمير فى (له) راجع إلى مَن فى قوله: من أسر القول، ومن جهر به، ومن هو مستخفٍ ـ أى لكل من هؤلاء مُعقبات، والمعقبات المتناوبات، التى يخلف كل واحد منها صاحبه، ويكون بدلا منه وهم الحفظة من الملائكة، يأتى بعضهم بِعقب بعض»[1].

والتَّعقب: العود بعد البدء، وعقبه تعقيبًا، أى جاء عَقِبه.

و(مِنْ) فى قوله: من أمر الله، بمعنى باء السببية.

ـ فقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ...﴾. «أى لمن أسرَّ أو جهر أو استخفى أو سرب ملائكة يتعاقبون عليه.

ـ وقوله تعالى: ﴿..مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ...﴾ من الآية رقم ١١ من سورة الرعد.

أى من جوانبه كلها، ومن أعماله ما قَدَّم وما أَخَّر.

فهذه المعقبات يحفظونه من أمر الله، أى يُراقبون ما يلفظ من قول، وما يأتى من عمل خيرًا أو شرًا بأمره تعالى وإذنه، «أو من أجل أمره لهم بِحفظه و(مِن) تعليلية أو بمعنى باء السببية»[2].

ويؤكد ذلك ما جاء بالحديث الشريف:

---

(١) فتح القدير للشوكانى جـ٣ ص٩٧.

(٢) تفسير القاسمى جـ٩ ص٣٣٦ وص٣٣٧.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يَعْرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عِبادى، فيقولون تركناهم وهم يُصَلُّون وأتيناهم وهم يُصَلُّون»(1).

فالملائكة يتعاقبون فِينا ليل نهار، ويقولون تركناهم فى طاعة الله صباح مساء، فهنيئًا لهؤلاء.

وإذا عَلِم الإنسان أن هناك ملائكة تُحصى عليه أعماله، كان حَذِرًا من وقوعه فى المعاصى، خِيفَة أن يطلع عليه الكرام الكاتبون، ويَزْجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات، كما يَحْذر من الوقوع فيها إذا حضر من يَسْتَحِى منه من البشر، وهو أيضًا إذا عَلِم أن كل عمل له فى كتاب مسطور، يكون ذلك رادِعًا له داعِيًا إلى ترك ما يُسِىء بإذن الله تعالى.

- ثم ساق سبحانه سُنة من سننه فى خلقه والتى لا تتخلف فقال:

﴿.. إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ من الآية رقم 11 من سورة الرعد.

أى: إن الله تعالى، قد اقتضت سنته فى خلقه، أنه سبحانه لا يُغير ما بقوم من نعمة وعافية وخَيْر بِضده، حتى يُغيروا ما بأنفسهم من طاعة

---

(1) صحيح البخارى جـ1 ص203 وص204/ 13/ كتاب مواقيت الصلاة 51 - باب فضل صلاة العصر رقم 530 عن أبى هريرة رضى الله عنه.

إلى مَعْصية، ومن جميل إلى قبيح، ومن صلاح إلى فساد، ومن ظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض وارتكابهم للشرور والموبقات، التى تُقوض نظم المجتمع وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم بالأفراد.

يقول القرطبى: «فليس معنى الآية أنه، ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال الرسول ﷺ: **«وقد سُئل أنهْلِك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث»**[1].

والمراد بالخبث هنا: الفِسق والفُجور والطُّغيان.

ورُوى أن أبا بكر رضى الله عنه: «قال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾**[2]- وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بِعقاب منه»**[3]- انْتقامًا ورَدْعًا لهم جميعا ولِيحذروا.

وذلك مصداقًا لِقوله تعالى: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً...﴾**[4].

أى احذروا بَطْش الله وانتقامه إن عصيتم أمره، واحذروا فِتنة إن نزلت بكم لا على الظالم خاصة، بل تعم الجميع وتصل إلى الصَالح

---

(١) صحيح البخارى جـ٣ ص١٢٢١ / ٤٦ ـ الأنبياء باب ١٠ قصة يأجوج ومأجوج رقم ٨٦١٣ عن زينب بنت جحش رضى الله عنها ـ قلت يا رسول الله ﷺ الحديث.

(٢) من الآية رقم [١٠٥] من سورة المائدة.

(٣) سنن الترمذى جـ٤ ص٤٦٧ / ٣٤ ـ كتاب الفِتن / ٨ ـ باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يُغيَّر المنكر رقم ٢/٦٨ .

(٤) من الآية رقم ٢٥ من سورة الأنفال.

والطالح، لأن الظالم يهلك بظلمه وعصيانه، وغير الظالم يهلك لعدم مَنْعه للظلم وسكوته عليه، وهذا وعيد شديد لمن عصاه، وألا يقروا المنكر بين أظهرهم؛ فيعمهم الله بعذاب من عنده.

قال ابن كثير: «قال ابن أبى حاتم ، أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل، أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله، ويتحولون منها إلى مَعْصية الله، إلا تحول الله لهم مما يُحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾»[1]ـ من الآية رقم ١١ من سورة الرعد.

وصدق الله وأحكم فيما قضى فَلنحذر.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ... ﴾ من الآية رقم ١١ من سورة الرعد.

يعنى إذا أراد سبحانه بقوم سوءًا من عذاب أو هلاك أو ما يشبههما بسبب إيثارهم الغى على الرشد، فلا راد لقضائه ولا دافع لعذابه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ آخر الآية رقم ١١ من سورة الرعد.

هذه الجملة زيادة فى التحذير من الغرور، أى ما لهم مَن دون الله من يلى أمورهم، أو ناصر ينصرهم منه سبحانه ويرفع عنهم عقابه، ويجلب لهم النَّفع، ويدفع عنهم الضر أو يلتجئون إليه عند الشدائد.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٥٠٤.

فالجملة الكريمة بيان لِمظهـر من مظاهر عدل الله فى شؤون عِباده، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعـاصى وجحود النعمة فلا يعصم الناس من عذابه عاصم، ولا يدفعه دافع.

وبهذا ينتهى المبحث الرابع، والذى ضم الآيات من رقم ٨ إلى آخر رقم ١١، والتى تحدَّث فيها المولى جل وعلا عن عِلمه بكل شىء.

المبحث الخامس

جوانب من نِعم الله تعالى على عباده وبعض الظواهر الكونية الدالة على قدرته

ويضم الآيات من رقم ١٢ إلى آخر رقم ١٥ من سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ...﴾ إلى آخر قوله تعالى ﴿.. وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

الآيات:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)﴾.

تمهيد:

بعد أن خَوَّف سبحانه عباده، بأنه إذا أراد السوء بقوم؛ فلا يدفعه أحد، أتبعه بذكر آيات تُشْبه النِّعم والإحسان حينًا وتُشبه العذاب والنِّقم حينًا آخر ـ فهذه الظواهر الكونية التى منها النِّعم ومنها النِّقم، تُسبح بحمد الله تبارك وتعالى.

أ ـ المفردات:

ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ...﴾ من الآية ١٢ الرعد.

«والبرق: هو لمعان السَّحاب»[١] ـ يعنى ما يراه الرائى من نور لامع يظهر من خلال السحاب.

وفى قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ من الآية ١٢ الرعد.

طِباق: المعنى وعكسه بين «خوفًا وطمعًا» وهو من المحسنات البديعية اللفظية.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ آخر الآية رقم ١٢ الرعد.

أى ويُوجِد السحب مُنشأة جديدة، مُمتلئة ماء فتكون ثقيلة، قريبة من الأرض، وإنشاء السحاب تكوينه، والسحاب الغَيْم المنسحب فى الهواء، وهو اسم جنس واحده سحابة، والثِّقال: جمع ثقيلة.

ـ قوله تعالى: ﴿.. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ...﴾ ـ من الآية رقم ١٣ الرعد.

والصَّواعق: جمع صاعِقة: «وهى الهزَّة الكبيرة»[٢] ـ يعنى ما يُرْعِب، والسياق يحدد المقصود، فقد يُقصد بها الموت أو العذاب المفزع أو النار.

---

(١) مفردات الراغب ص٤١.

(٢) مفردات الراغب ص٢٨٩.

ـ وقـوله تعـالى: ﴿.. وَهُوَ شَـدِيدُ الْمِحَالِ﴾ آخـر الآية رقم ١٣ الرعد.

«أى الآخذ بالعـقوبة، مَحَل به مَحْـلا إذا أراده بسوء»[١]ـ وانتـقـام والعياذ بالله.

ـ قوله تـعالى: ﴿.. كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ...﴾ من الآيـة ١٤ الرعد.

هنا تشبيـه تَمثيلى، فقد شَـبَّه عدم استجـابة الأصنام للداعين لها، بِعدم اسـتجابة الماء، لِباسط كـفيه إليه من بُعْـد، فوجه الشبـه مُنتزع من متعدد.

ـ قـوله تعـالى: ﴿.. وَلِلَّهِ يَسْـجُـدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًـا وَكَرْهًا...﴾ ـ من الآية رقم ١٥ من سورة الرعد.

هناك طِباق بين طوعًا وكرهًا ـ المعنى وعكسه.

يقول الراغب:

«السجود أصله التَّذلل، وجعل ذلك عِبارة عن التذلل لله، وهو عام فى الإنسان والحـيوان والجمادات، وهو ضـربان سجود باختـيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يسـتحق الثواب، نحـو قوله: ﴿فَـاسْـجُـدُوا لِلَّهِ وَاعْـبُـدُوا﴾[٢] ـ أى تذللوا له واعبـدوه حق عبادته، وأطيعـوه واءتَمِرُوا بأوامره، وانتهوا عـن زواجره، وسجود تَسْخير وهو للإنـسان والحيوانات والنباتات والجمادات، وعلى ذلك قـوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْـجُـدُ مَن فِي

(١) مفردات الراغب ص٤٨٤.

(٢) آية رقم [٦٢] من سورة النجم.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾[١]»[٢]- فالكل خاضع له ومُنْقاد له وتحت سلطانه سبحانه.

ب- فى أسباب النزول:

قال القرطبى: «فيما ذكره الماوردى عن مجاهد، نزلت فى يهودى قال للنبى ﷺ - أخبرنى من أى شىء ربك، أمن لؤلؤ، أم من ياقوت؟ - فجاءت صاعقة فأحرقته»[٣]- والله قادر على كل شىء يُعجل بانتقامه متى شاء وكيف شاء.

جـ- المناسبة:

قال الرازى: «اعلم أنه تعالى لما خَوَّف العِباد، بإنزال ما لا مَرَدَّ له، أتبعه بذكر الآيات التالية، والتى هى مشتملة على دلائل قدرة الله تعالى وحكمته، وأنها تُشبه النِّعم والإحسان من بعض الوجوه، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه»[٤] - فهو سبحانه يذكر بالترغيب حينًا وبالترهيب أخرى.

د- التفسير للآيات من رقم ١٢ إلى آخر رقم ١٥ من سورة الرعد:

١ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ من الآية ١٢ من سورة الرعد.

والمعنى: أن الله تعالى وحده، هو الذى يُريكم بقدرته البرق وهو النور اللامع من خلال السحاب، وخوفًا وطمعًا حالان من الكاف فى يريكم، أو هما فى محل المفعول لأجله.

(١) من الآية رقم [١٥] من سورة الرعد.
(٢) مفردات الراغب ص٢٢٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٥٩.
(٤) التفسير الكبير للرازى جـ١٩ ص٢٩.

ويترتب على إرْسال البرق هذا، أن بعضهم يخاف ما ينجم عنه من صواعق أو سَيْل مُـدَمِّر، وبعضهم يَطمع فى الخـير من ورائه فقد يعـقبه المطر النافع، والغيث المِدْرار لإنبات الزرع.

فمن مظاهـر حكمته تعـالى فى خلقه، أنه جـعل البرق عـلامة إنذار وتبشـير مـعًا، لأنه بالإنذار والتـبشيـر يقود النفـوس إلى الحق، وتَفىء إلى الرُّشد، ويشير بذلك إلى كمال قدرته، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ـ آخر الآية رقم١٢ .

هذه الجـملة بيان لمظهـر آخر من مظاهر قـدرته سبـحانه، وإنـشاء السحاب ـ بإثارة الأبْخِرة التى تتجمع سحابًا»[١]ـ بقدرة الله تعالى.

والسـحاب: الغَـيْم المنسحـب فى الهواء، وهو اسم جنس واحـده سحابة، والجمع سحب وسحائب، والثِّقال جمع ثَقيلة.

«قال مجاهد مُثقلة بالماء»[٢]ـ الذى به الخِصب والنَّماء.

والسحاب يكون ثقيلا بمقدار ما فى خلاله، من بخار الماء.

وهو سبـحانه الذى يُنْشئ السحـاب المثقل بالماء؛ فـيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٣١ ص١٠٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٥٨.
(٣) الآية رقم [٥٧] من سورة الأعراف.

يعنى يرسل الرياح مُـبـشرة بالمطر، وبين يـدى رحمـته، أى أمـام نعمته، والمطر من أجَلِّ النِّعم وأحسنها أثرًا على الإنسان وغيره، حتى إذا حملت الرياح سحابًا مُثقلا بالماء، ساق سـبحانه السحاب إلى أرض ميِّتة مُجْدِبة لا نبات فيهـا؛ فأنزل فى ذلك البلد الميت الماء؛ فأخرج بذلك الماء من كل أنواع الثمرات، كذلك إخراج الموتى من قبورهم، لعلكم تعتبرون وتتعظون بمشيئة الله تعالى.

٢ ـ وقوله تـعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ...﴾ من الآيـة ١٣ الرعد.

هنا بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته تعالى، والرعد اسم للصوت الهائل الذى يُسْمع إثر اصطكاك الكتل السحابية بعضها ببعض.

وعطف سـبحانه الـرَّعد على البـرق؛ لأنه مُقـارن له فى كثـير من الأحوال.

والتسبيح مُشتق من السَّبح، وهو المرُّ السريع فى الماء أو فى الهواء، وسُمى الذاكر لله تعالى مُـسبِّحًا؛ لأنه مُسرع فى تنزيهـه سبحانه عن كل نَقْص.

وتسبيح الرعد بحمد الله، يجب أن نؤمن به، ونفـوض كيفيته إلى الله تعالى؛ لأنه من الغـيب الذى لا يعلمه إلا هو، وقد بَيَّن لنا سـبحانه فى كتابه أن كل شىء يُسبح بحمده سبحانه، فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾(١).

(١) من الآية [٤٤] من سورة الإسراء.

يعنى تسبح له سبحانه الكائنات وتُنزِّهُهُ، وتُقدسه الأرض والسماوات، ومن فيهن من المخلوقات، وما من شىء فى هذا الوجود، إلا هو ناطق بِعظمة الله، شاهد بوحدانيته جل فى علاه.

ولكن لا تفهمون تسبيح هذه الأشياء؛ لأنها ليست بلغاتكم؛ فجلَّت قدرته سبحانه.

ويقول الآلوسى: «قوله ويسبح الرعد ـ قيل هو اسم للصوت المعلوم، والكلام على حذف مُضاف ـ أى ويسبح سامعو الرعد بحمده سبحانه رجاء المطر.

والذى اختاره أكثر المحدثين، كون الإسناد حقيقيا، بناء على أن الرَّعد اسم للملك الذى يسوق السحاب»[١].

والذى نراه أن تسبيح الرعد بحمد الله، يجب الإيمان به سواء أكان الرَّعد اسْمًا لذلك الصوت المخصوص، أم اسمًا لِملك من الملائكة، أما كيفية هذا التسبيح فمردها إلى الله تعالى، وهذا هو الصواب إن شاء الله تعالى.

قال الشوكانى: قوله ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ...﴾ أى يسبح الرعد نفسه بحمد الله، أى مُتلبسا بحمده، وليس هذا بمستبعد ولا مانع من أن يُنطقه الله بذلك»[٢]ـ وهو سبحانه على كل شىء قدير ـ فسبحان من يُسبح الرعد بحمده.

ومن الدعوات التى تقال عند سماع صوت الرعد: اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بِعذابك يا رب العالمين.

---

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١١٩.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ٣ ص١٠٢.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ... ﴾ من الآية رقم ١٣.

وهذه أيضا من الأدلة الدالة على وحدانيته سبحانه وقُدرته.

يعنى يُسبح الرعد بحمد الله تعالى، وتُسبح الملائكة أيضًا بِحمده جل فى علاه، وخوفا مِنه تعالى، وإجلالا لمقامه وذاته.

و« مِن » فى قوله تعالى: ﴿ .. مِنْ خِيفَتِهِ... ﴾ ـ للتعليل، أى يسبحون لأجل الخوف منه والتقديس له والله أعلم.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ... ﴾ من الآية رقم ١٣ من سورة الرعد.

وهذه الصواعق من الظواهر الكونية، الدالة على كمال قدرته سبحانه.

والصواعق جمع صاعقة، وهى كل أمر هائل يراه الرائى؛ فيصير من هوله، وعظيم شأنه إلى هلاك، وذهاب عقل، والمراد بها هنا النار النازلة من السماء.

أى ويرسل سبحانه الصواعق المهلكة؛ فيصيب بها من يشاء إهلاكه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ـ آخر الآية رقم ١٣.

وضمير الجماعة فى قوله: ﴿ .. وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ... ﴾ ـ يعود على أولئك الكافرين الذين سبق أن ساق القرآن بعض أقوالهم الباطلة، والتى منها قولهم: ﴿ .. أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ... ﴾[1].

---

(١) من الآية رقم [٥] من سورة الرعد.

يعنى أئذا متنا وأصبحنا رُفاتًا وعظامًا وترابًا، هل سنبعث من جديد؟! مَرَّة أخرى.

والمجادلة: المخاصمة والمراجعة بالقول.

والمراد بِمجادلتهم فى الله تكذيبهم النبىَّ ﷺ فيما أمرهم به، من وجوب إخلاص عبادتهم لله تعالى وإيمانهم بيوم القيامة وما فيه من الثواب والعقاب.

والمِحال: الكيد والمكر والعقوبة، يقال مَحَل فُلان بِفلان مَحْلاً، ومِحالاً إذا كاده وعَرَّضه للهلاك.

قال القرطبى: «قال ابن الأعرابى: المِحال: المكر، وهو من الله تعالى، التدبير بالحق، أو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر.

وقال الأزهرى: المِحال: أى القوة والشِّدة.

وقال أبو عبيد: المِحال: العُقوبة والمكروه»[1].

أى أن هؤلاء الكافرين، يُجادلونك أيها الرسول صلى الله عليك وسلم، فى ذات الله وفى صفاته وفى وحدانيته، وفى شأن البعث، وينكرون ما جئتهم به من بيِّنات، والحال أن الله تعالى شديد المعاقبة لأعدائه، شديد النَّكال بهم.

٣ ـ ثم بَيَّن سبحانه: أن دعوته هى دعوة الحق، وما عداها فهو باطل ضائع فقال:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٦١.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ...﴾ ـ من الآية رقم ١٤ .

أى له وحده سبحانه، الدعوة الحق المطابقة للواقع، لأنه هو الذى يُجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، وهو الحقيق بالعبادة والالتجاء إليه، والتَّضرع له والإنابة إليه، وتوجيه الوجه ثابت له تعالى لا لِغيره، فهو الجدير بأن يُعْبَد وحده لا شريك له.

«فإضافة الدعوة للحق، من إضافة الموصوف للصفة»[١].

وفيها إيذان بملابسة هذه الدعوة للحق واختصاصها به، وكونها بِمعزل عن شائبة البطلان والضَّياع والضلال.

يقول ابن عاشور:

«والدعوة طلب الإقبال، وكَثر إطلاقها على طلب الإقبال للنجدة أو للبذل، وذلك مُتعيَّن فيها إذا أطلقت فى جانب الله لاستحالة الإقبال الحقيقى، فالمراد طلب الإغاثة أو النَّجدة»[٢]ـ ومعنى كون الدعوة له سبحانه، أنه شرعها وأمر بها فاللجأ إليه وحده وهو الذى يسمع فيجيب بمشيئته سبحانه.

وقيل المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة التوحيد والإخلاص.

والمعنى لله من خلقه أن يُوحدوه، ويُخلصوا له العبادة والطاعة.

وقيل: دعوة الحق، دعاؤه سبحانه عند الخوف؛ فإنه لا يُدعى فيه سواه ـ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ...﴾[٣].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٩ ص٢٤٦.

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص١٠٧.

(٣) من الآية رقم [٦٧] من سورة الإسراء.

ومعنى هذا المقطع من آية الإسراء، أنه إذا أصابتكم الشدة والكرب فى البحر، وخشيتم من الغرق، ذهب عن خاطركم ما كنتم تعبدونه من الآلهة، ولم تجدوا غير الله مُغِيثًا يُغيثكم.

وقيل: الدعوة الحق: أى العبادة الحق، فإن عبادة الله تعالى هى الحق والصدق، الذى لا ريب فيه، والتى تؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة، بمشيئة الله تعالى.

- ثم بين سبحانه حال من يعبد غيره فقال:

﴿ .. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ... ﴾ - من الآية رقم ١٤ من سورة الرعد.

والمراد بالموصول (والذين) الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله تعالى، والضمير فى يدعون للمشركين.

أى والأصنام الذين يدعوهم المشركون، ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله، لا يُجيبونهم بشىء مما يريدونه من نفع أو ضر، إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه، والماء جماد لا شعور له ببسط الكفين ولا قبضهما، فكيف يُجيب دعاءه، وهكذا أصنامهم لا تجيب دعاءهم.

والمقصود من الجملة الكريمة، نفى استجابة الأصنام، لما يطلبه المشركون نفيًا قاطعًا، حيث شبه سبحانه حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها، ما هم فى حاجة إليه، بحال إنسان عطشان، ولكنه جاهل لأنه يمد يده إلى الماء طالبًا منه، أن يصل إلى فَمه، دون أن يتحرك هو إليه، فلا يصل إليه شىء من الماء؛ لأن الماء جماد لا يسمع نداء من يُناديه.

ففى هذه الجملة تصوير بليغ لِخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء، لِغير الله تعالى.

وأجرى سبحانه على الأصنام ضمير العقلاء فى قوله:

﴿.. لا يَسْتَجِيبُونَ...﴾ ـ مُجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين، لأنهم يُعاملون الأصنام مُعاملة العقلاء.

ونكَّر شيئا فى قوله ﴿.. لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ...﴾ ـ للتحقير، والمراد أنهم لا يستجيبون لهم، أية استجابة حتى ولو كانت بسيطة.

«والاستثناء فى قوله: ﴿.. إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ...﴾ من عموم أحوال الداعين والمستجيبين»[١].

أى: لا تستجيب الأصنام، لمن يطلب منها شيئا، إلا استجابة كاستجابة الماء لِملهوف بسط كفيه إلى الماء يطلب منه، أن يدخل فمه، والماء جماد لا يشعر ببسط الكف ولا بالعطش ولا يقدر أن يجيب طلب من بسط الكف، ولو مكث على ذلك طوال الحياة.

والضمير (هو) فى قوله ﴿.. وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ...﴾ ـ للماء، والهاء فى بِبالغه للفم، أى وما الماء ببالغ فم هذا الباسط لِكفيه.

وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يُدركه، بالقيض على الماء.

ـ وقوله سبحانه: ﴿.. وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ ـ آخر الآية رقم ١٤ من سورة الرعد.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص١٠٩.

«هذه الجملة عطف على جملة والذين يدعون من دونه لاستيعاب حال المدعو وحال الداعى، فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الإجابة، وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتَمْليح، واشتمل ذلك أيضًا بالكناية على خيبة الداعى»[1]- والعياذ بالله.

أى وما عِبادة الكافرين للأصنام والتجاؤهم إليها فى طلب الحاجات، إلا فى ضياع وخُسران؛ لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نَفْعًا ولا ضراً، فضلاً عن أن تملك ذلك لغيرها.

٤ ـ ثم بين سبحانه عظيم قدرته، وأن هذا الكون كله خاضع له عز وجل فقال:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ـ الآية رقم ١٥ من سورة الرعد.

والمراد بالسجود له سبحانه: الانقياد والخضوع لِعظمته والتقديس له جل فى علاه.

والظلال: جمع ظل، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور.

والغدو: جمع غدوة، «والغداة من أول النهار»[2] ـ وهى ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس.

والآصال: «جمع الأصيل، أصل وآصال»[3]- «ولَقيته أصيلا أى عشيا»[4]- والأصيل ما بين العصر وغروب الشمس.

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص١١٠.

(٢) مفردات الراغب ص٣٧١.

(٣) مفردات الراغب ص١٥.

(٤) أساس البلاغة للزمخشرى جـ١ ص١٤.

وقــوله ﴿ .. طَوْعًـا وَكَـرْهًا .. ﴾ ـ منصـوبان على الحـال: أى أن جميعهم يسجدون لله، وينـقادون لعظمته وسُلطانه، حال كونهم طائعين وراضين، بهذا السجود والانقياد، وحـال كونهم كارهين وغير راضين به فى أحوال أخرى.

لأنهم لا يسـتطيعون الخـروج على حكمه، لا فى الإيـجاد ولا فى الإعدام، ولا فى الصـحة ولا فى المرض، ولا فى الغنى ولا فى الفـقر، فهم خاضعون لأمره سبحانه، شاءوا أم أبوا.

ويستوى فى هذا الخضوع المؤمن والكافر، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية واختيار بذاته وبظاهره وبباطنه لله تعالى.

أما الكافر فهـو خاضع لله تعالى بذاته ومتمـرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره.

والضمير فى قوله سبـحانه وظلالهم، يعود على من فى السماوات والأرض.

أى أن الله تعـالى يخـضع له من فى السـمـاوات والأرض طوعًـا وكرهًا، ويخضع له أيضًا بالغدو والآصال، ظلال من له ظِل منهم، لأن هذه الظلال لازمة لأصـحابها، والكل تحت قـهره ومشـيئته فى الامـتداد والتقلص والحركة والسكون.

قال تعـالى: ﴿ .. وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَـرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[١].

---

(١) من الآية رقم [٨٣] من سورة آل عمران.

أى ولله استسلم، وانقاد وخضع أهل السماوات والأرض طائعين ومُكرَهين، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله طوعًا، والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، وإلى الله الجميع يوم المعاد فيجازى كلا بعمله.

وبهذا ينتهى المبحث الخامس، فى جوانب من نعم الله تعالى على عِباده، وبعض الظواهر الكونية الدالة على قدرته سبحانه لِتكون لنا عِبرة وعظة، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وينتقل الحديث بعد ذلك إلى المبحث السادس فى إعادة الكلام على الوحدانية وضرب الأمثلة للحق والباطل.

المبحث السادس

إعادة الكلام على الوحدانية وضرب الأمثلة للحق والباطل

ويضم الآيات من أول رقم ١٦ إلى آخر رقم ١٨ من سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ...﴾ إلى آخر قوله تعالى: ﴿.. وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

الآيات:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)﴾.

تمهيد:

ثم وجه سبحانه ـ عن طريق نبيه ﷺ ـ أسئلة تهكمية إلى هؤلاء المشركين، المجادلين فى ذات الله وصفاته، وساق لهم أمثلة للحق والباطل، وبين لهم حُسن عاقبة المستجيبين لِدعوة الحق، وسوء عاقبة المعرضين عنها.

أ ـ المفردات:

ـ قوله تعالى: ﴿ .. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ... ﴾ ـ من الآية ١٦ من سورة الرعد.

فيها من النواحى البلاغية استعارة، فقد استعار لفظ الظلمات والنور، للكفر والإيمان، وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل، والبصير للمؤمن العاقل.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا... ﴾ ـ من الآية رقم ١٧ من سورة الرعد.

زبد الماء «وقد أزبد أى صار ذا زبد»[1] ـ وهو الرغوة والغُثاء الذى يحمله السَّيل الطافى على وجه الماء، من مُخلفات نباتية وغيرها.

ورابِيا: يعنى عاليا مُنْتفخًا.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً... ﴾ ـ من الآية رقم ١٧ من سورة الرعد.

ومعنى: «جفاءً» ـ يعنى مُضمحلا متلاشيا ـ لا منفعة فيه، ولا بقاء له، يُقال: جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ آخر الآية ١٨ من سورة الرعد.

المهاد: الفِراش، وأصله المكان الممهد الموطأ للنوم والراحة.

ب ـ المناسبة:

قال الرازى: «اعلم أنه تعالى، لما بين أن كل من فى السماوات والأرض ساجد له، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام ليبكتهم فقال:

---

(١) مفردات الراغب ص٢١٥.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ...﴾[(١)] ـ تساؤل واضح وهو يتضمن الجواب.

ولما كان هذا الجواب، جوابا يُقر به المسئول ويعترف به، ولا ينكره، أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يكون هو الذاكر لِهذا الجواب تنبيهًا على أنهم لا ينكرونه البتة..»[(٢)]. ولكنهم يُعاندون.

جـ ـ التفسير للآيات من رقم ١٦ إلى آخر رقم ١٨ من سورة الرعد:

١ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ...﴾ من الآية رقم ١٦ من سورة الرعد.

أى قل أيها الرسول الكريم صلوات ربى وتسليماته عليك، وقل أيها الداعية لهؤلاء المشركين، من رب هذه الأجرام العظيمة العلوية والسفلية، التى تبْهر العقول، بجميل صُنْعها. وكامل ترتيبها ووضعها وتنسيقها؟

فإذا أبوا الرَّد عليكم، عِنادًا وصلفًا وكِبرًا وغرورًا؛ فجابهم بالحقيقة التى لا يستطيعون إنكارها، وهى أن الله وحده هو رب هذه الأجرام، لأنه هو خالقها ومُوجدها على غير مثال سابق، فى أحكم بناء، فسبحانه وتعالى.

وقد أُمر عليه الصلاة والسلام، لِيجيب بأن خالق هذه الأجرام، هو الله للإشارة إلى أنه هو وهُم سواء فى ذلك الجواب الذى لا محيص منه، وهم لا ينكرونه ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾[(٣)].

(١) من الآية رقم ١٦ من سورة الرعد.
(٢) التفسير الكبير للرازى جـ١٩ ص٣٧.
(٣) من الآية رقم [٢٥] من سورة لقمان.

أى ولئن سألت يا محمد عليك الصلاة والسلام ـ هؤلاء المشركين، من خلق السماوات والأرض؟ ليقولن: الله خلقهن جل فى علاه.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا... ﴾ من الآية رقم ١٦ من سورة الرعد.

وذاك أمر آخر من الله تعالى لنبيه ﷺ ـ لإفحامهم وتبكيتهم.

«والهمزة للإنكار»[1]ـ فى قوله: أفتخذتم، والفاء للعطف على مُقدَّر بعد الهمزة ـ «للتسبب والتفريع»[2]ـ يوضحه السياق السابق.

والمعنى: أعلمتم حق العلم، أن الله تعالى هو الخالق للسماوات والأرض ـ فتركتم عبادته سبحانه ـ واتخذتم من دونه (أولياء) ـ أى نصراء عاجزين ـ فهى جمادات لا يملكون لأنفسهم ـ فضلا عن أن يملكوا لغيرهم نفعًا يَجلبونه لها، ولا ضَرًّا يدفعونه عنها، وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك؛ فعبادتها محض السَّفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد، يزن أعماله بميزان الحكمة والمصلحة.

وفى قوله تعالى: ﴿ .. أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ... ﴾ ـ وجملة (لا يملكون) صفة لأولياء، والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر فى تلكم الصِّفة، فإنهم إن أحسنوا التفكير، فى هؤلاء الأولياء أيقنوا أنهم أحْقر من أن يُلتفت إليهم، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئًا.

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ، أن يُبرهن لهم على بطلان مُعتقداتهم، عن طريق ما هو مُشاهَد بالحواس، فضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٢٨.

(٢) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

الأصنام، والمؤمنين الذين يَعْتـرفون بأنه، لا رب غيره ولا معـبود سواه، فقال جل فى علاه:

ـ ﴿ .. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ... ﴾ ـ من الآية رقم ١٦ من سورة الرعد.

أى قل لهم مُصَوِّرًا سخيف آرائهم ومُفَنِّدا قبيح مُعتقداتهم، كما أنه لا يستـوى فى عرف كل عاقل: الأعـمى والبصيـر، والظلمات والنور ـ فكذلك لا يسـتوى الكفـر والإيمان؛ فإن الكفـر انطماس فى الـبصـيرة، وظلمات فى القلب، أما الإيمان فهو نور فى القلب وإشراق فى النفس.

فالمراد بالأعـمى الكافر والبـصيـر المؤمن، كما أن المراد بالـظلمات الكفر وبالنور الإيمان.

أى هل تستوى الظلمات التى لا ترى فـيها الطريق، فتسلك والنور الذى يُبْـصَر به الأشيـاء، ويجلو ضوؤه الظلام، لا شـك أن الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان.

فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حَيْرة، وفى غمرة لا يهتدى إلى حقيقـة ولا يَصل إلى صواب، والإيمان بالله صاحبه منه فى ضـياء، فهو يعمل على عِلم بربه ومعـرفة منه، بأنه يُثيبه على إحسـانه، ويُعاقبه على إساءته، ويكلؤه بِعنايتـه فى كل حين، فهو يُفوض أمـره إليه إذا أظلمت الخطوب، وتعقَّدت فى نظره مُدْلهمات الحوادث.

ـ ثم انتـقل سـبحـانه إلى التـهكم بِهم، عن طريق الالـتفـات من الخطاب إلى الغَيْبة، إعراضًا عنهم وإِهمالاً لِشأنهم، فقال تعالى:

﴿ .. أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ... ﴾ ـ من الآية رقم ١٦ من سورة الرعد.

وأم هنا بمعنى بل، والاستفهام للإنكار.

أى بل أخَلق أوثانكم التى اتخذتموها معبودات، من دون الله خلقًا كخلقه، فاشتبه عليكم أمرها فيما خُلِقت، فجعلتموها له شركاء. أى جعلتم الأوثان شركاء لله.

ولا يخفى على من له مُسْكة من العقل، أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من الجهل بحقيقة المعبود، ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى.

وإنما الواجب عبادة من يُرْجى نفعه ويخشى عقابه وضره، وهو الذى يَرزق ويُميت آناء الليل وأطراف النهار.

فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم، حيث عبدوا من دون الله مَخْلوقا مثلهم، وتنفى أى عذر يعتذرون به يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

وقوله تعالى: ﴿ .. كَخَلْقِهِ... ﴾ فى معنى المفعول المطلق، أى خلقوا خلقًا شبيهًا بما خلقه الله تعالى.

وجملة ﴿ .. فَتَشَابَهَ.. ﴾ ـ معطوفة على جملة ﴿ .. خلقوا.. ﴾ السابقة.

أى أم اتخذ هؤلاء المشركون، آلهة خلقوا مخلوقات كالتى خلقها الله، فالتبس الأمر عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع؛ فإنهم يرون كل شىء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئًا، ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين.

ولما أقام الحجة عليهم، جاء بهذا البيان الواضح بقوله تعالى:

ـ ﴿ .. قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(*) ﴾ ـ آخر الآية رقم١٦ من سورة الرعد.

أى قل لهم مُبينا وجه الحق، الله خالقكم، وخالق أوثانكم وخالق كل شىء ـ يقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

أى أن الله جل وعلا خلقكم، وخلق عملكم، وكل الأشياء مخلوقة له، فكيف تعبدون المخلوق، وتتركون الخالق، وهو الواحد الأحد القاهر فوق عباده.

فهو الذى قهر كل شىء، وخضع لِجلاله وعظمته وكبريائه كل شىء سبحانه وتعالى، فالجميع تحت قبضته.

فكيف تعبدون غيره، وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع.

٢ ـ ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل بقوله سبحانه:

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ... ﴾ من الآية رقم ١٧ من سورة الرعد.

والأودية: جمع وادٍ، وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض، الذى يَسيل فيه الماء بكثرة.

والسيل: الماء الجارى فى تلك الأودية.

وبِقدرها: أى بِمقدارها المتفاوت قِلة وكثرة، بحسب تفاوت أمكنتها صِغرًا وكبرًا، واحتمل: أى حمل.

---

(١) الآية رقم [٩٦] من سورة الصافات.

(*) «والقهر: الغلبة والتذليل معًا، ويستعمل فى كل واحد منهما» مفردات الراغب ص٤٢٩ ـ والسياق هو الذى يحدد المقصود.

والزبد: هو الغثاء الذى يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه، أو ما يعلو القِدْر عند الغليان، ويسمى بالرغوة.

ورابيا من الربو بمعنى العلو والارتفاع.

والمعنى الإجمالى لهذا المقطع من الآية.

أنه بعد أن ضرب الله سبحانه، مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفران، ضرب مثلين للحق فى ثباته وبقائه، وللباطل فى اضمحلاله وفنائه، ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء، وما أعَدَّ لكل منهما يوم القيامة، وبيَّن أن حاليهما لا يستويان عنده، وأن الذى يعى تلك الأمثال، ويعتبر بها هو ذو القلب السليم، والعقل الأريب والفكر الثاقب بمشيئة الله تعالى.

والمعنى: أنزل الله تعالى من السماء، ماءً كثيرًا ومطرًا مدرارًا، فسالت أودية بقدرها، أى فسالت المياه فى الأودية بسبب هذا الإنزال، بمقدارها الذى حدَّده الله تعالى، واقتضته حكمته فى نفع الناس، أو بمقدارها قلة وكثرة، بحسب صغر الأودية وكبرها، واتساعها وضيقها، فاحتمل السيل زبدًا رابيًا، أى فحمل الماء السائل فى الأودية بكثرة وقوة غُثاء عاليًا مرتفعًا فوق الماء، طافيا عليه لا نفع فيه ولا فائدة.

وهذا هو المثل الأول الذى ضربه الله تعالى للحق والباطل، والإيمان والكفران.

وإلى هنا ينتهى المثل الأول، حيث شبه سبحانه، الحق وأهله فى الثبات والنفع بالماء الصافى، الذى ينزل من السماء؛ فتمتلئ به الأودية، ويبقى محل انتفاع الناس به، إلى الوقت المحدد فى علم الله تعالى.

وشبه الباطل وشيعته فى الاضمحلال وعدم النفع بزبد السيل المتنفخ المرتفع فوق سطح الماء، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل، ويَفْنى ويَنْسلخ عن المنفعة والفائدة.

ثم ابتدأ سبحانه فى ضرب المثل الثانى فقال:

ـ ﴿ .. وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ... ﴾ ـ من الآية رقم ١٧ من السورة.

و(من) فى قوله ومما يوقدون لابتداء الغاية، وما موصولة، ويوقدون من الإيقاد، وهو جعل الحطب وما يشبهه فى النار ليزيد اشتعالها.

«والجملة فى محل رفع خبر مُقدم، وقوله (زبد) مبتدأ مؤخر»[١]ـ أى وزبد مثله كائن مما توقدون.

والحلية: ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما.

والمتاع: ما يتمتع به فى حياته، من الأوانى والآلات المتخذة من سائر المعادن.

والضمير فى قوله: مثله: يعود إلى الزبد فى قوله تعالى: ﴿ ..زَبَدًا رَّابِيًا... ﴾ ـ وهو الغثاء الذى يعلو ويرتفع.

«واختلف فى ﴿يُوقِدُونَ﴾ ـ فحفص وحمزة والكسائى وخَلَف بالياء من تحت، ووافقهم ابن محيصن والمطوعى، والباقون بالتاء على الخطاب باختلاف الضمير»[٢] والمعنى واحد.

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٤ ص١١٥.

(٢) إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر للبناء ص٢٧٠.

والضمير للناس فى ﴿ .. مِمَّا يُوقِدُونَ .. ﴾، وأُضْمِرَ لظهوره.

والمعنى: وشبيه بالمثل السابق، فى خروج الزبد والخبث وطرحه بعيداً عن الأشياء النافعة، ما توقدون عليه فى النار من المعادن والجواهر، لكى تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلى والأمتعة المتنوعة، فإنكم فى مثل هذه الحالة، تبقون على النَّقِّى النافع منها وتطرحون الزبد والخبث الذى يلفظه الكير، والذى هو مثل زبد المسيل فى عدم النفع.

فقد شبه سبحانه فى هذا المثل الثانى، الحق وأهله فى البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية، وشبه الباطل وحزبه فى الفناء وعدم النفع بخبث الحديد الذى يطرحه كير الحداد، ويهمله الناس.

ثم بين الحق سبحانه المقصود من ضرب هذه الأمثال فقال: - ﴿ ..كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ... ﴾ - من الآية رقم [١٧] من السورة. أى وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا، إلا مثل السيل والزبد، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع المعَادِن النقية مما يُسبك فى النار، بل يذهب ويَضْمحل؛ فالباطل لا ثبات ولا دوام له أمام الحق.

والكلام على حذف مُضاف، والتقدير يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل.

ثم شرع سبحانه فى تفسيم المثل فقال:

- ﴿ .. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ... ﴾ - من الآية ١٧ من سورة الرعد.

أى فأما الزبد الذى لفظه السيل فيذهب جفاء مرميا به مطروحا بعيداً، لأنه لا نفع فيه.

يقـال جَفَـا الماء بالزَّبد، إذا قذفـه ورمى به، والجفـاء بمعنى الغـثاء والذى يطفو على السطح.

وأما ما ينفع الناس من الماء الصافى والمعدن النَّقى الخالى من الخبث فيمكث فى الأرض، أى فيبقى فيها لِينتفع الناس به.

وبدأ سبحانه بالزبد فى البيان، فقـال فأما الزبد فيذهب جُفاء، لأن الزبد هو المنظور أولا لأعين الناس، أما الجـوهر فهو مستـتر خلفه، لأنه هو الباقى النافع.

ـ وقوله سبـحانه: ﴿ .. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ ـ آخـر الآية رقم١٧ من سورة الرعد.

وفى ذلك تَفْـخيم لِشـأن هذا التـمثـيل الذى اشـتملت عليـه الآية الكريمة.

«وجملة كـذلك يضرب الله الأمـثال، مُسْـتأنَفة تَذْييلـية لما فى لفظ الأمثال من العموم»[1]ـ فهى أعم من جملة ﴿ ..كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ...﴾ ـ من الآية رقم ١٧ من سورة الرعد.

واسم الإشارة «كـذلك» ـ للتنويه بذلك المثل، وتنبـيه الأفـهام إلى حكمته، وحِكمة التـمثيل، وما فيها من المواعظ والعِبـر، وما جمعه الله فيها من التمثيل والكناية التعريضية ـ وإلى بلاغة القرآن وإعجازه، وذلك تَبْهِيج للمؤمنين وتَحَدٍّ للمشركين.

أى أن مثل ذلك البـيان البـديع الذى اشتملت عليـه الآية الكريمة، بضرب الله الأمثـال لِلناس لَعلهم يتفكرون، فيحملـهم هذا التفكير على

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ١٣ ص١٢١.

الإيمان الحق، وحسن التمييـز بين الخير والشر، والمعروف والمنكر، والحق والباطل بمشيئة الله تعالى.

قال الشوكانى: «هذان مثلان ضربهما الله تعالى فى هذه الآية للحق والباطل.

يقول: إن البـاطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحـوال وعلاه، فإن الله تعالى سيَـمْحقه ويُبطله، ويجعل العاقبـة للحق وأهله بمشيئة الله تعالى، كالزَّبد الذى يعلو المـاء، فَيُلْقيه الماء ويَطْرَحه، كخـبث الأجسام، فإنه وإن علا عليها؛ فإن الكير يقذفه ويَدفعه، فهذا مثل الباطل.

وأما الماء الذى ينفع الناس، وينبت المراعى، فـيمكث فى الأرض، وكذلك الصافى من هذه الأجسام، فإنه يبقى خالِصا وهو مثل الحق.

وقال: الزجاج فـمثل المؤمن واعتقاده، ونفـع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفَع به فى نبـات الأرض وحياة كل شىء، وكمثل نَـفْع سائر الجواهر، لأنها كلها تبقى مُنْتَفَعًا بها.

ومثل الكافر وكفره كمـثل الزبد، الذى يذهب جُفَاء، وكمثل خبث الحـديد، وما تخـرجـه النار من وسخ الفضـة والذهب، الذى لا يُنتـفع به»[1].

وهذا تحليل دقيق من الله القدير، الذى يعلم خبايا النفوس؛ فجلت حكمته سبحانه.

ثم بَيَّن الله تعـالى عاقـبة أهـل الحق، وعاقـبة أهل البـاطل فقـال سبحانه:

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ٣ ص١٠٧.

٣ - ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ... ﴾ من الآية رقم ١٨ من سورة الرعد.

أى للذين أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره وصدَّقوا ما أخبر به، فيما نزل عليه من عند ربه، وانتهوا عن زواجره، لهم المثوبة الحسنى الخالصة فى جنات النعيم والرضوان فهنيئًا لهم.

فقوله: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى... ﴾: هنا «ابتداء كلام وهو خبر مُقدم، والحسنى مبتدأ مؤخر، وقوله الحسنى نعت لمصدر محذوف، أى الاستجابة الحسنى»[1]- فلهم الكرامة عند ربهم جل فى علاه.

- وقوله تعالى: ﴿ .. وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ... ﴾ - من الآية رقم ١٨ الرعد.

فالذين لم ينقادوا لأمره، ولم ينتهوا عن نهيه، وعاندوا الحق الجلىَّ، لو أن لهم ما فى الأرض جميعًا من أصناف الأموال، ولهم أيضًا مثل هذه الأموال مرة أخرى كما فى قوله: ﴿ .. مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ... ﴾ - أى لهان عليهم مع نفاستها وكثرتها، أن يقدموها فِداء لأنفسهم من عذاب يوم القيامة والعياذ بالله.

فالضمير فى قوله ﴿ .. وَمِثْلَهُ مَعَهُ.. ﴾ - يعود إلى ما فى الأرض جميعًا من أصناف الأموال، وفى ذلك ما فيه من تهويل ما سيلقونه من عذاب أليم، جزاء كفرهم وجحودهم وعِنادهم، وارتكابهم للشرور

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٤ ص١١٧.

والآثام، وانغماسهم فى لذاتهم، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يُحيط به البيان.

ـ ثم بين سبحانه سوء مصيرهم فقال:

﴿ .. أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ... ﴾ ـ من الآية ١٨ من السورة.

وأتى باسم الإشارة ﴿ ..أُوْلَئِكَ.. ﴾ ـ للتنبيه على أنهم أحْرِياء بما بعد تلك الإشارة.

أى أن أولئك الذين لم يستجيبوا لِربهم، لهم الحساب السَّىء الذى لا رحمة معه ولا تساهل فيه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ.. ﴾ من الآية رقم ١٨ الرعد.

أى مرجعهم الذى يرجعون إليه جهنم وبئس القرار.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ آخر الآية رقم ١٨ من سورة الرعد.

أى وبئس المستقَر، الذى يَستقرون فيه.

«والمخصوص بالذم محذوف ـ أى مهادهم جهنم»[1] ـ التى هى مستقرهم يوم القيامة بمشيئة الله تعالى.

وعلى هذا رأينا الآيات الكريمات، قد أقامت أوضح الأدلة، وأحكمها على وحدانية الله تعالى وقدرته، وبَينت حُسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين المعاندين.

---

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٣٣.

وبهـذا ينتهى المبـحث السادس فى إعـادة الكلام على الوحدانـية، وضرب أمثلة للحق والباطل والذى ضم الآيات من أول رقم ١٦ إلى آخر رقم ١٨ من سورة الرعد، ومنها يتضح أنه سبحان هو الصادق فى قوله: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[(١)].

أى ألا يعلم الخـالق مخلوقـاته، كـيف لا يعلم من خلق الأشيـاء وأوجـدها، والحـال أنه هو اللطيف بالعِـبـاد الذى يعلم دقـائق الأمـور وغوامضها، الخبيـر الذى لا يعزب عن علمه شىء؛ فلا تتحرك ذَرَّة، ولا تسكن أو تضطرب نفس إلا وعنده تعالى خبرها، كل فى كتاب مبين.

ثم بَيَّن سبحـانه بعد ذلك، أنه لا يستوى الأعمى والبصـير، ومدح أولى الألباب بما هم أهله من مدح، وذَمَّ أضدادهم بما يَستحقون من ذم.

(١) الآية رقم [١٤] من سورة الملك.

المبحث السابع

صفات أولي الألباب وأضدادهم

ويضم الآيات من أول رقم ١٩ إلى آخر رقم ٢٦ من سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ...﴾.

إلى آخر قوله تعالى: ﴿.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾.

الآيات:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

تمهيد:

وفى الآيات التاليات مدح الله تعالى أولى الألباب بصفاتهم الرشيدة، التى تؤهلهم للسعادة فى الدنيا والآخرة، وذَمَّ أضدادهم بما يستحقون من ذم، فصاروا تعساء فى الدنيا والآخرة، والعياذ بالله.

أ- المفردات:

- قوله تعالى: ﴿.. كَمَنْ هُوَ أَعْمَى..﴾ من الآية رقم ١٩ من سورة الرعد.

شبه الجهل والكفر بالعمى على سبيل الاستعارة التبعية، لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر.

- قوله تعالى: ﴿..سِرًّا وَعَلانِيَةً..﴾ - ﴿.. بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ..﴾ من الآية ٢٢ بين كل منهما طباق - المعنى وعكسه.

- قوله تعالى: ﴿.. وَيَدْرَءُونَ..﴾ - من الآية رقم ٢٢ من سورة الرعد.

أى يدفعون.

يقول الراغب: «ودرأت عنه: دفعت عن جانبه»(١).

فالدرء الدفع - والسياق يُحدد المعنى.

- قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ...﴾ - من الآية رقم ٢٣.

يقول الزمخشرى: «وعَدَن القوم بالبلد يعنى أقاموا»(٢).

فالعدن: الإقامة، يقال عدن بمكان كذا إذا استقر.

---

(١) مفردات الراغب ص١٦٨.

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى جـ٢ ص١٠٣.

«يقال فلان فى معدن الخير والكرم، وهو من مراكز الخير ومعادنه»[١] ـ يعنى من طِباع الخير.

فعدن: استقرار وثبات وخلود.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ آخر الآية ٢٤ الرعد.

يعنى العاقبة، ويسمى الجزاء على الفعل عُـقبَى، لأنه يكون عَقِب الفعل.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. الدَّارِ﴾ ـ يعنى المنزل ـ «والدار الدنيا والدار الآخرة ـ إشارة إلى المقرَّين، النشأة الأولى والنشأة الأخرى»[٢].

فالمقصود بقوله تعالى: ﴿ .. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ـ يعنى هنيئًا لهم دار الآخرة، التى هى عاقبة إخلاصهم، وعملهم الخالص لِوجه الله تعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ...﴾ ـ من الآية رقم ٢٦.

يقول الراغب: «بسط الشىء: نَشرَه وتوسَّعه، فتارة يُتصور منه الأمران، وتارة يتصور منه أحدهما، ويُقال بسط الثوب: نشره»[٣] بكامل اتساعه.

والمقصود ببسط الرزق هنا، يعنى الله يُوسعه من فضله.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَيَقْدِرُ..﴾ ـ من الآية رقم ١٦ من سورة الرعد.

هذه الكلمة لها معانٍ متعددة، تظهر من السياق.

---

(١) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٢) مفردات الراغب ص١٧٥ وص١٧٦.

(٣) مفردات الراغب ص٤٣.

يقول الراغب: «وقدرت عليه الشيء ضيقته»[١].

ففى الآية يقدر هنا بمعنى يُضيق فى مقابلة التوسعة .

ـ وفى قوله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾ من الآية رقم٢٦ الرعد.

بين يبسط ويقدر: طباق المعنى وعكسه.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ آخر الآية رقم ٢٦ من سورة الرعد.

فمتاع كل شىء ما يُتمتع به إلى أجل، ثم ينتهى ويفنى، أى إلا مثل المتاع الذى يستمتع به الإنسان من الحاجات المؤقتة، ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه.

ب ـ المناسبة:

بعد أن ضرب الله الأمثال، لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد، ولمن ركب رأسه، وسار فى سَبْل الضلالة لا يلوى على شىء، ولا يقف لدى غاية.

بَيَّن أن من جمع صفات الخير الآتية، يكون ممن اتبعوا الحق وملكوا نواصىَ الإيمان، وأقاموا دعائمه، وهؤلاء قد كتب الله لهم حُسْن العقبى، والسعادة فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى وكرمه وإحسانه.

جـ ـ التفسير للآيات من رقم ١٩ إلى آخر رقم ٢٦ من سورة الرعد:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى...﴾ ـ من الآية رقم ١٩ من سورة الرعد.

---

(١) مفردات الراغب ص٤١٠.

هذا مثل ضربه الله لـلمؤمن والكافر، «وقيل إنهـا نزلت في حمزة ابن عـبـد المطلب، رضى الله عنه، وأبـى جهـل لَعنة الله عليـه، والمراد بالعمى عمى القلب، والجاهل بالدين أعمى القلب»[1]ـ والعياذ بالله.

أى لا يسـتـوى من يعـلـم أن الذى أنــزله الله عليـك مــن ربـك يــا محمد صلى الله عليك وسلم هو الحق الذى لا شك فيه ولا امتراء، ومن لا يعلم فهو أعمى لا يهتدى إلى خير يَفْهمه، ولو فهمه ما انْقاد إليه ولا صدَّقه، فيبقى حائرًا فى ظلمات الجهل، وغياهب الضلالة.

فالذين آمنوا واهتدوا قوم انتفعـوا بما سمعوا من كتاب الله، وعقلوه ووعَوْه، والآخرون كمن هو أعمى عن الحق فلا يُبْصره ولا يَعْقله.

فالأعـمى إذا أخذ يمشى من غيـر قائد، فربما يقع فى المهـالك، أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والإهلاك.

والمراد بالأعمى هنا الكافر الذى انطمست بَصيرته؛ فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل.

والاستفهام ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ للإنكار والاستبعاد.

والمعنى: أفمن يعلم أن ما أنزل إليك أيها الرسول الكريم صلى الله عليك وسلم من وَحْى، هو الحق الذى يهـدى للتى هى أقوم، كـمن هو أعمى القلب مطموس البصيرة؟ لا يستويان.

فـالآية الكريمة تـنفى بأبلغ أسلوب، مُسـاواة الـذين علمـوا الحق فاتبعوه، بمن جهلوه وأعرضوا عنه، وصَمُّوا آذانهم عن سماعه.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ ـ آخر الآية رقم ١٩ من سورة الرعد.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٦٨.

هذه مدح لأصحاب العقول السليمة، الذين ذُكِّروا بالحق فتذكروه، وآمنوا به، وتعليل لإعراض الكافرين عنه ببيان أن سبب إعراضهم، أنهم ليسوا أهلا للتذكر؛ لأن التذكر إنما هو من شأن أولى الألباب.

والألباب: جمع لُب وهو الخالص من كل شيء.

أى: إنما يتذكر وينتفع بالتذكر - بإذن ربهم - أصحاب العقول السليمة، وهم المؤمنون الصادقون.

٢ ـ ثم مدح سبحانه أصحاب هذه العقول السليمة، بِجُملة من الخصال الحميدة فقال:

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ...﴾ ـ من الآية رقم ٢٠ من سورة الرعد.

أى الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين العباد، وشهدت فطرهم فى هذه الحياة بصحته، وأنزل عليهم فى الكتاب إيجابه وفَرْضه.

وتلكم صِفة من صفات ذوى الألباب، أى إنما يتذكر أولوا الألباب الموفون بِعهد الله ـ «والعهد اسم للجنس ـ أى بجميع عُهود الله، وهى أوامره ونواهيه التى وَصَّى بها عَبِيده، ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتَجنب جميع المعاصى»[1].

والله تعالى ذكر الوفاء بالعهد والميثاق، فى مواضع كثيرة من قرآنه عِناية بأمره، واهتمامًا بِشأنه، حيث يُؤدى إلى صلاح حال العبادات والمعاملات، وإلى أن تسود الثقة فى المجتمع بمشيئة الله تعالى.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٦٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ـ آخر الآية رقم ٢٠ من سورة الرعد.

والنقض بمعنى الفَسْخ والحل، لما كان مُركبًا وموصولا، والميثاق العهد الموثَّق والمؤكد.

والمعنى: إنما يتذكر أولوا الألباب الذين من صفاتهم، أنهم يوقنون بعهد الله تعالى، بأن يؤدوا كل ما كلفهم الله بأدائه، ويجتنبوا كل ما أمرهم باجتنابه، ولا يَنْقضون شيئًا من العهود، والمواثيق التى التزموا بها.

وصدَّر صفات أولى الألباب، بِصفة الوفاء بِعهد الله وعدم النقض للمواثيق؛ لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان وصدق العزيمة وصفاء النفس.

وأضاف سبحانه: العهد إلى ذاته للتشريف والتحريض على الوفاء به.

ـ وجملة ﴿ .. وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ تعميم بعد تَخصيص لِتشمل عهودهم مع الله تعالى، ومع غيره من عباده فى سائر المعاملات.

«والميثاق ما ركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات»[1].

والتى تشمل شرائع الدين الحنيف الذى يعمل على سعادة الفرد والمجتمع فى الدنيا والآخرة بمشيئة الله وفضله.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ...﴾ من الآية ٢١ من سورة الرعد.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٩ ص٢٦٨.

أى والذين يصلون الرحم التى أمرهم الله بوصلها، ويبذلون المعروف، فكل معروف صدقة، ويعاملون الأقارب بالمودة والحسنى، ويحسنون إلى المحاويج، وذوى الخِلَّة، يعنى ذوى الحاجة منهم بإيصال الخير إليهم، ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة وشهود جنائزهم.

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب أن يُبسط له فى رزِقه، ويُنْسأ له فى أثره، فليصل رحمه**»[١].

وإنْساء الأجل تأخيره، وذلك بالبركة فيه فكأنه قد زاد.

وفى قول رسول الله ﷺ أيضًا: «... **ولا يزيد فى العمر إلا البر**»[٢]ـ والتراحم والتعاطف، فالبر والصلة، تخففان من سوء الحساب يوم القيامة.

كما يدخل فى وصل ما أمر الله به أن يوصل جميع حقوق الله وحقوق عِباده كالإيمان بالكتب والرسل، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان، كالإحسان إليهم ونُصْرتهم، والشفقة عليهم، وإفشاء السلام، وعيادة المرضى، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران، والرفقة فى السفر إلى غير ذلك.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾ من الآية رقم ١٢ من سورة الرعد.

---

(١) صحيح مسلم جـ٤ ص١٩٨٢ / ٥٤ ـ كتاب البر والصلة والآداب ٢١ ـ (٢٥٥٧).

(٢) سنن الترمذى جـ٤ ص٤٤٨/ ٣٣ ـ كتاب القدر/ ٦ ـ باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ـ رقم ٢١٣٩ ـ عن أبى عثمان النهدى عن سليمان رضى الله عنهما.

والخشية: خوف مَقْرون بالتعظيم، والعِلم بمن تخشاه، ومن ثم خَصَّ الله تعالى الخشية بالعلماء بدينه وشرائعه العالمين بجلاله وجبرونه فى قوله: ﴿ .. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ... ﴾[1].

والمراد أنهم يخشون ربهم، ويخافونه خوف مَهابة وإجلال خشية مطلقة، تحملهم على امتثال أمره، واجتناب نهيه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ ـ آخر الآية ٢١ سورة الرعد.

«والخوف ظن وقوع المضرة من شىء»[2]ـ أى شىء.

وسوء الحساب ما يحف به مما يسوء المحاسَب.

فهم يحذرون مناقشة الله إياهم الحساب، وعدم الصفح عن ذنوبهم، فهم يخافون أهوال يوم القيامة، وهم لرهبتهم جادون فى طاعته محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه، فهم يتركون العمل السيء ويحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا.

وقوله ﴿ .. وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾، بعد قوله: ﴿ .. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ... ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به.

٤ ـ ثم أضاف سبحانه إلى الصفات السابقة لأولى الألباب صفات أخرى حيث قال:

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ.. ﴾ من الآية رقم ٢٢ من السورة.

---

(١) من الآية رقم [٢٨] من سورة فاطر.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٣ ص١٢٨.

والمعنى: والذين صبروا على ما تكرهه النفس، ويَثقل عليها من فعل الطاعات، وصبروا عن معصية الله وترك الشهوات والمآثم، وصبروا على المصائب وآلامها، طلبا لِرضا ربهم وخالقهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق مباهاة أو مجاملة، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعُجبا.

وإنما كان صبرهم من أجل رضا ربهم وطلبًا لِثوابه.

وفى ذلك يقول الزمخشرى: «والذين صبروا فيما يُصْبَر عليه من المصائب، فى النفوس والأموال، ومشاق التكليف ابتغاء وجه ربهم، لا لِيقال ما أصبره وأجلده وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لِئلا يُعاب بالجزع، ولئلا يشمت به الأعداء، ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مَرَدَّ فيه للغائب.

وكل عمل له وجوه يُعمل عليها، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حَسنًا عند الله تعالى، وإلا لم يستحق به ثوابا، وكان فِعلا كلا فِعل»(١).

فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغى به وجهه.

ويقول الرازى: «إذا صبروا على البلاء، لِعلمهم بأن ذلك البلاء تسمة حكم بها القسام العلاَّم المنزه عن العيب والباطل والسفه، بل لابد أن تكون القِسمة مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضى بذلك، لأنه تصرف المالك فى ملكه، ولا اعتراض على المالك فى أن يتصرف فى ملكه»(٢)ـ فقد صبر ابتغاء وجه ربه، ولمجرد ثوابه، وطلبا لِرضاه لاستغراقه فى معرفة نور الحق.

---

(١) تفسير الكشاف جـ٣ ص١٠٥ بتصرف.

(٢) التفسير الكبير للرازى جـ١٩ ص٤٩.

وجاءت الصِّلات (الذين يوفون والذين يصلون) وما عطف عليها بِصيغة المضارع فى تلك الأفعال الخمسة، لإفادة التجدد كِناية عن الاستمرار.

«وجاءت صِلة ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ...﴾ وما عطف عليها وهو أقاموا الصلاة وأنفقوا بِصيغة المضي، لإفادة تحقق هذه الأفعال، وتمكنها من أنفسهم تنويها بها لأنها أصول فضائل الأعمال.

والصبر ملاك استقامة الأعمال، ومصدرها، فإذا تخلق به المؤمن صدرت منه الحسنات والفضائل بسهولة»[1].

وهكذا نرى المؤمن يفعل الطاعات بدرجات عاليات فله ثوابه عند ربه.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. وَأَقَامُوا الصَّلاةَ...﴾ من الآية رقم ٢٢ من سورة الرعد.

أى أدوها فى أوقاتها، كاملة الأركان والسنن والأذكار بِخشوع وإخلاص لِوجهه تعالى مع اجتناب الرياء، وإن كانت الصلاة والزكاة داخلة فى الجملة الأولى، إلا أنه أفرد الصلاة هنا لأهميتها، وأنها أول ما يُعرض على الله من أعمال العبد يوم القيامة».

والصلاة عماد الدين ويقول تعالى: ﴿.. إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ...﴾[2] ـ عن كبائر الذنوب وهى الفحشاء وعن المنكر وهى صغائر الذنوب.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٣ ص١٢٨.

(٢) من الآية رقم [٤٥] من سورة العنكبوت.

ـ ومن صفات أولى الألباب قوله تعالى:

﴿ .. وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً.. ﴾ من الآية ٢٢ من سورة الرعد.

أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم بِسخاء وصفاء نفس سراً فيما بينهم وبين ربهم، فصدقة السر تُطفئ غضب الرَّب ﴿ .. وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ... ﴾(١)ـ حفاظا على شعور الفقراء، ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: ..ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه.

وإذا ظهر الإنفاق، وأظهره الله تعالى، كان مجالاً للتنافس فى الخير، لِيقتدى بهم فنِعمَّا هى، شريطة ابتغاء وجه الله ورضاه، لا محمدة الناس.

«وقيل السِّر إذا أداها بِنفسه، والعلانية للإمام»(٢)ـ والأوفق العموم، وسواء كان الإنفاق واجبًا، كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء، أم مندوبًا كالإنفاق على الفقراء والمحاويج، تحقيقًا للتراحم والتعاطف والتكافل الاجتماعى ولِسعادة الفرد والجماعة بمشيئة الله تعالى.

ـ ومن صفات أولى الألباب كذلك قوله تعالى: ﴿ .. وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ... ﴾ ـ من الآية رقم ٢٢ من سورة الرعد.

والدرء: الدفع والطرد: يقال درأ درءًا أى دفع.

يعنى: ويدفعون الشر بالخير، ويجازون الإساءة بالإحسان، فهو كقوله تعالى: ﴿ .. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾(٣).

---

(١) من الآية رقم [٢٧١] من سورة البقرة.

(٢) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٤٢.

(٣) من الآية رقم [٦٣] من سورة الفرقان.

يعنى وإذا خاطبهم السفهاء بِغلظة وجفاء، قالوا قولا يسلمون من الإثم، لا يجهلون على أحد، وإذا جُهل عليهم حلموا.

فهم يدفعون بالعمل الصالح، العمل السيء ـ كما فى قول الرسول الكريم صلوات ربى وسلامه عليه، عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بِخلق حسن»[1].

فهم يُراقبون الله عز وجل، ويَدفعون سيئة من أساء إليهم، بالإحسان إليه، أو بالعفو والصفح عنه، متى كان هذا الإحسان أو العفو لا يؤدى إلى مَفسدة، وبما يؤدى إلى المودة والمحبة بين أفراد المجتمع.

قال صاحب الظلال: «وفى الآية إشارة خفية إلى مُقابلة السيئة بالحسنة، عندما يكون فى هذا درء السيئة ودفعها، لا إطماعها واستعلاؤها، فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ويحتاج الشر إلى الدفع فلا مكان لِمقابلتهما بالحسنة؛ لئلا يتفشَّى الشر ويَسْتعلى»[2]ـ والعياذ بالله وهذا من الحكمة فى المعاملة الطيبة.

«ودرء السيئة بالحسنة، يكون غالبًا فى المعاملة الشخصية بين المتخاصمين، فأما فى دين الله فلا.

إن المستعلى الغاشم، لا يجدى معه إلا الدفع الصارم.

---

(١) سنن الترمذى جـ٤ ص٣٥٥/ ٢٨ ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى معاشرة الناس رقم١٩٨٧.

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ٤ ص٢٠٥٨.

والمفسدون فى الأرض، لا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف، واستشارة الألباب، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب»[١].

وهكذا كل حالة ولها ظروفها.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ـ آخر الآية ٢٢ من سورة الرعد.

بيان الجزاء الحسن الذى أعده الله تعالى لهؤلاء الأخيار.

والعُقبى: مصدر كالعاقبة، وهى الشىء الذى يقع عَقِب شىء آخر.

أى إن أولئك الذين وصفناهم بتلكم المحاسن والكمالات، التى بلغت الغاية فى الشرف والعُلى، هم الذين لهم العقبى الحسنة والنصرة فى الدار الدنيا والآخرة بمشيئة الله تعالى.

وتعريف الدار للعهد، والمراد بالدار، الدنيا وعقباها الجنة.

وقيل المراد بالدار الآخرة، وعقباها الجنة للطائعين والنار للعاصين.

فلهؤلاء الطائعين الذين سبقت صفاتهم، لهم العاقبة الحسنة وهى الجنة، والجملة الكريمة ﴿ .. أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ خبر من الذين يوفون بعهد الله فى أول الآية وما عطف عليها.

٥ ـ وقوله سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ...﴾ ـ من الآية ٢٣ من سورة الرعد.

وفى ذلك تفصيل للمنزلة العالية، التى أعدها سبحانه لِهؤلاء الطائعين.

---

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب جـ٤ ص٢٠٥٨.

أى إن أولئك الذين قَدَّموا ما قَدموا فى دنياهم من العمل الصالح، لهم جنات دائمة باقية يدخلونها لا يخرجون منها أبدا، هم ومن صلح يعنى من كان صالحًا لدخولها من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم أى من أصولهم وفروعهم وأزواجهم على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسرَّتهم من الأُنس باجتماع الأهل والمحبين والصالحين.

وفى قوله سبحانه: ﴿ .. وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ.. ﴾ - دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة، إلا إذا كانت أعمالهم صالحة، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، بعمل صالح خالص مُخلص لوجه الله الكريم.

فيجمع الله بينهم وبين أحبائهم من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة، لِتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى من درجته، بل امتنانا من الله وإحسانًا، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... ﴾[1].

فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم فى أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم - فهنيئًا لهم.

وقوله سبحانه: ﴿ .. وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ من الآية رقم ٢٣ من سورة الرعد وهى آخر الآية.

---

(١) من الآية رقم [٢١] من سورة الطور.

فالملائكة يدخلون على هؤلاء الأوفياء الصابرين، من كل باب من أبواب الجنة، ومن كل باب إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة، تكريمًا وتشريفًا وتأنيسًا لهم.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم...﴾ من الآية رقم ٢٤ من السورة.

وهذه الجملة مقول لقول محذوف، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة، وهى بشارة لهم بدوام السلامة، قائلين لهم سلام عليكم أى أمان دائم عليكم.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ ـ من الآية رقم ٢٤ من السورة.

وهذا من سلام الملائكة على هؤلاء الصالحين الذين فازوا بجنات النعيم.

والباء فى «بما» للسببية، إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف وعلى الأذى، وبعدهم عن المعاصى وعلى جهادهم بأموالهم وأنفسهم، كان ذلك كله على رأس الأسباب التى أوصلتهم إلى تلكم المنازل العالية، بمشيئة الله وفضله وكرمه.

«وتخصيص الصبر بالذكر من بين الصفات السابقة، لما أنه ملاك الأمر»[1]ـ كله.

فهو أساس صحة العبادات والمعاملات بمشيئة الله تعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ آخر الآية رقم ٢٤ من السورة.

---

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٤٥.

أى فنعم عاقبة الدنيا الجنة، «وقيل المراد دار الآخرة»[١]- حسنت مستقراً ومُقامًا، بفضل الله وكرمه وإحسانه.

«وهذا ثناء على حسن عاقبتهم، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة مقام الخطاب عليه، والتقدير فنعم عقبى الدار دار عقباكم»[٢] فهنيئًا لهم.

وبعد أن ذكر سبحانه صفات هؤلاء الأوفياء، وما أعَد لهم من ثواب جزيل، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم القاطعين لما أمر الله بوصله، والمفسدين فى الأرض.

٧ ـ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ...﴾ من الآية رقم ٢٥ من سورة الرعد.

ونقض العهد: إبطاله وعدم الوفاء به.

وقوله تعالى: ﴿.. مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ..﴾، زيادة فى تشنيع النقض، أى ينقضون عهد الله تعالى، لا يوفون به، من بعد أن أكدوا التزامهم به، وقبولهم له.

ـ وقوله تعالى: ﴿.. وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ...﴾ ـ من الآية رقم ٢٥ من سورة الرعد.

أى ويقطعون كل ما أوجب الله تعالى وصله، ويدخل فيه وصل الرسول ﷺ بالاتباع والموالاة، ووصل المؤمنين بالمعاونة والمحبة، ووصل أولى الأرحام بالمودة والتعاطف، ووصل من له حق، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٤٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور جـ١٣ ص١٣٢.

فالجملة الكريمة بيان لِحال هؤلاء الأشـقياء، بأنهم كانوا على الضد من أولئك الأوفياء الأخيار، الذين كانوا يَصِلون ما أمر الله به أن يوصل.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ...﴾ من الآية رقم ٢٥ من سورة الرعد.

وهذه صفـة ثالثة من صفـاتهم القبيحـة ـ حيث كانوا يفـسدون فى الأرض، عن طريق حـربهم لدعوة الحق، وتخـريب بلادهم واعتـدائهم على المؤمنين وأموالهم، فإفسادهم فى الأرض بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لِغيرهم، وتهييج الفتن بين المسلمين.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ آخر الآية رقم ٢٥ من سورة الرعد.

وفى هذا إخبار عن العذاب الشديد الذى سيلقونه فى آخرتهم بمشيئة الله تعالى.

أى أن أولئك الموصوفين، بتلكم الصفات الذميمة لهم من الله تعالى اللعنة والطرد من رحمته ورضوانه، والبعد عن خيرى الدنيا والآخرة.

فلهم الدار السيئـة، وهى جهنم التى ليس فيها إلا مـا يسوء الصائر إليها والعياذ بالله.

ثم بَيَّن الحق سبحانه بعد ذلك، أن الغنى والفقر بيده وبفضله، وأن العطاء والمنع بأمره كذلك.

٨ ـ فقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾ من الآية رقم ٢٦ من سورة الرعد.

وبَسْط الرزق، كِناية عن سعتــه ووفرته وكثرته والبركة فــيه، ويقدر يعنى يُضيق ويُقلل.

قال الشوكانى: «لما ذكر سبحانه عاقبة المشركين بقوله:

﴿ .. أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1]- يعنى لهــم الطرد من رحمة الله، ولهم عذاب جهنم وبئس المصير.

كان لِقائل أن يقول: قد نرى كــثيرًا منهم قد وفر الله له فى الرزق، وبَسط له فيه.

فأجاب سبحانه عن ذلك: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾ من الآية رقم ٢٦ من سورة الرعد.

فقد يــبسط الرزق لمن كان كافــرًا، ويُقتر على من كان مــؤمنًا ابتلاءً وامتحانًا، ولا يدل البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة...»[2].

أى إن الله تعالى وحده، هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه.

وهو وحده أيضًا الذى يُضيقــه على من يشاء مِنهم، لِحكم يعلمها هو سبحــانه، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان، فقــد يوسع على الكافر استدارجًا له، وقد يضيق على المؤمن امتحانًا له أو زيادة فى أجره ودرجته ولا يظلم ربك أحدا.

ـ والضمير فى قوله تعالى: ﴿ .. وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ مــن الآية رقم ٢٦ من سورة الرعد.

---

(١) آخر الآية [٢٥] من سورة الرعد.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى جـ٣ ص١١٤.

يعود الضمير فى ﴿فَرِحُوا﴾ إلى مُشركى مكة، ومن على شاكلتهم فى الكفر والطغيان والعياذ بالله.

والمراد بالفرح هنا الأشر والبطر والغرور وجحود النعم التى أنْعم الله بها عليهم.

أى وفرح هؤلاء الكافرون بربهم الناقضون لعهودهم، بما أوتوا من بَسْطة فى الرزق فى دنياهم، فرح بطر وأشر وغرور ونسيان للآخرة، لا فرح سرور بنعم الله، وشكر له سبحانه.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ ـ آخر الآية رقم ٢٦ من سورة الرعد.

وفى هذا بيان لِقلة نعيم الدنيا، بالنسبة لِنعيم الآخرة.

والمتاع ما يتمتع به الإنسان فى دنياه من مال وغيره، لِمدة مُحددة، ثم ينقضى فهو متاع قليل.

أى إن هؤلاء الفرحين بِنعم الله عليهم فى الدنيا فرح بطر وأشر وجحود، لن يتمتعوا بها طويلا، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئًا قليلاً بالنسبة لِنعيم الآخرة، وتنكير «متاع» للتقليل.

فإذا نُسبت أحوال الحياة الدنيا بأحوال الآخرة، ظهر أن أحوال الدنيا متاع قليل ـ كما فى قوله تعالى: ﴿ .. فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1]. كراكب استظل بِظل شجرة، ثم تركها وانصرف.

وبذلك نرى أن الآيات الكريمات فى هذا المبحث السابع، والتى ضمت الآيات من أول رقم ١٩ إلى آخر رقم ٢٦ ـ قد بينت صفات

(١) من الآية رقم [٣٨] من سورة التوبة.

المؤمنين وحسن عاقبتهم، وصفات الكافرين وسوء مصيرهم، كما وضحت أن الأرزاق بيد الله تعالى، يُعطيها بِسعة لمن يشاء من عباده، ويُعطيها بقلة لِغيرهم وبحكمة.

ثم حكى سبحانه بعد ذلك بعض المطالب المتعنتة للكافرين ورد عليها بما يُضحضها إن شاء الله تعالى.

المبحث الثامن

بعض المطالب المتعنتة للكافرين والرد عليها وثواب المؤمنين الصادقين

ويضم الآيات من أول رقم ٢٧ إلى آخر رقم ٣١ من سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ من الآية ٢٧ من سورة الرعد.

إلى آخر قوله تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ آخر الآية رقم ٣١ من سورة الرعد.

الآيات:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾.

تمهيد:

ثم قصَّ سبحانه بعد ذلك بعض المطالب المتعنتة، التى طلبها الكافرون من النبى ﷺ، ورد عليها بما يُبطلها، ومدح المؤمنين لاطمئنان قلوبهم إلى سلامة دينهم من كل نقص، وأيْأسهم من إيمان أعدائهم لاستيلاء العناد والجحود على قلوبهم.

أ ـ المفردات:

ـ قوله تعالى: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ...﴾ ـ من الآية ٢٧ من سورة الرعد.

بين يُضل ويهدى ـ طِباق ـ المعنى وعكسه.

ـ قوله تعالى: ﴿.. مَنْ أَنَابَ﴾ آخر الآية رقم ٢٧ من سورة الرعد.

يقول الراغب: «النَّوب رجوع الشىء مرة بعد أخرى، يقال: ناب نَوْبا ونَوْبة.. والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل»[١].

وأنيبوا إلى ربكم، يعنى: ارجعوا إليه منيبين تائبين.

ـ قوله تعالى: ﴿.. طُوبَى...﴾ ـ من الآية رقم ٢٩ من سورة الرعد.

يعنى فرح وقرة عين، مصدر من طاب كبشرى، ومعناه أصبت خيراً وطيبًا.

---

(١) مفردات الراغب ص٥٢٩.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَحُسْنُ مَئَابٍ.. ﴾ آخر الآية رقم ٢٩ من سورة الرعد.

يعنى حسن مرجع.

ـ قوله تـعالى: ﴿ .. كَـذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ.. ﴾ من الآية رقـم ٣٠ من سورة الرعد.

فيها تشبيه.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَإِلَيْهِ مَتَابِ.. ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٠ من سورة الرعد.

يعنى وإليه أرجع.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ ـ من الآية رقم ٣١ الرعد.

اليأس: القنوط من الشيء، وقيل معناه أفلم يعلموا.

يقول الراغب: «اليـأس انتفاء الطمع، يقـال: يئس واستيـأس مثل عجب واستعجب»[(١)] ـ والسياق يحدد المقصود.

ـ قوله تـعالى: ﴿ .. تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ... ﴾ من الآيـة ٣١ الرعد.

وعند الراغب: «القـرع ضـرب شـيء على شيء ـ ومنه قـرعتـه بالمقرعة»[(٢)] ـ يعنى ضربته بالسوط أو ما شابهه.

---

(١) مفردات الراغب ص٥٧٤.

(٢) مفردات الراغب ص٤١٦.

ب- المناسبة:

ولما أبان الله للكافرين أنهم قد انخدعوا بالسراب وبزخارف الدنيا الفانية التى يعطيها الله لمن يشاء، ويحرمها ممن يشاء، ذكر سبحانه ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسول الله ﷺ - بآيات ومعجزات قاهرة ظاهرة كمعجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

جـ- فى أسباب النزول:

فيما ذكره السيوطى فى لباب النقول فى أسباب النزول: «أخرج ابن أبى حاتم عن عطية الصوفى قال: قالوا للنبى ﷺ: لو سَيَّرت لنا جبال مكة، حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض، كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحْيَيْت لنا الموتى، كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا..﴾»[1]- من الآية ٣١ من سورة الرعد.

وغير ذلك من التحديات التى ذُكرت فى آيات أخرى.

د- التفسير للآيات من أول رقم ٢٧ إلى آخر رقم ٣١ من سورة الرعد:

١ - يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ...﴾ من الآية رقم ٢٧ من سورة الرعد.

حكاية لما طلبه مشركو مكة من رسول الله ﷺ، على سبيل التعنت والطغيان والافتراء.

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى جـ١٧٠ وص١٧١.

ومرادهم بالآية، آية كونيـة كإحياء الموتى، كما أحيـا عيسى، وفلق البحر لموسى، وإزاحة الجبال من أماكنها، أو أن يحول جبل الصفا ذهبا.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ آخر الآية رقم ٢٧ من سورة الرعد.

قل لهم يا مـحمد (صلى الله عليك وسلم) الأمر بيـد الله تعالى، وليس إليَّ، يُضل من يشاء إضلاله، فلا تـغنى عنه الآيات والنُّذُر شيئا، ويرشـد إلـى دينه من أراد هدايتـه، لأنه رجع إلى ربه بالتـوبة والإنابة والرجوع إليه.

خـرج بالكلام مَخْرج التعجـب، حين طلبوا آيـة، فقد جاءهم الرسول ﷺ بالقرآن وغيره من الآيات، فعـميت عليهـم وطلبوا غيرها، كأنهم يرون القـرآن لا يكفى فى زعمـهم أن يكون آية ومُعجـزة شاهـدة على صدقه ﷺ.

ـ وقد أمر الله تعالى رسول الله ﷺ ـ أن يرد عليهم بقوله: ﴿ ..قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ آخـر الآية ٢٧ من سـورة الرعد.

«وحقـيقة الإنابة الرجوع إلى توبة الخـير»[1]ـ والهـدى والرشـاد، ومفعول من يشاء محذوف ـ تقديره من يشاء إضلاله.

يعنى قل لهم أيهـا الرسـول صلى الله عليك وسلم ـ علـى سبـيل التعجب من أحوالهم ومن شـدة ضلالهم، إن الله تعالى يضل عن طريق الحق من يريد إضـلاله، لاستـحبـاب هذا الضـال العمى على الهـدى، ويهدى إلى صراطه المستقيم من أناب إليه سبحانه، ورجع إلى الحق الذى جاء به الرسول ﷺ بقلب سليم وعقل متفتح لِمعرفة الصواب والرشاد.

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٤٨.

والجملة الكريمة تعجب من أقوالهم الباطلة، ومن غفلتهم عن الآيات الباهرات التى أعطاها الله لِرسوله ﷺ وعلى رأسها القرآن الكريم.

وبعـد أن بَيَّن القرآن أن الله يضل من يشـاء، ويهدى إليـه من تاب وأناب، بَيَّن سبحانه بعدها، صفة الذين أقبلوا على الحق بصورة مُشْرِقة.

٢ ـ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ...﴾ من الآية رقم ٢٨ من سورة الرعد.

يعنى تستقر قلوبهم بذكر الله، وتسكن بسبب تدبرهم لِكلامه المعجِز وهو القـرآن الكريم، وما فـيه من هِـدايات، وإطلاق الذكر على القـرآن الكريم ورد فى آيات كثيرات، ومـنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـــافِظُونَ﴾[1]ـ فالله تعـالى نَزَّل القرآن وحـفظه من التـبديل والتحريف أو الحذف وما شابه ذلك.

ـ ومنها الآية التى معنا فى سورة الرعد: ﴿.. أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ من الآية رقم ٢٨ من سورة الرعد.

أى بذكره وحده تسكن القلوب، أُنْسًا به ومَحبَّة.

والذكر باللسان ينبه القلوب إلى مراقبته سبحانه.

والأظهـر أن يراد بـذكـر الله هنا القـرآن، لأنه الأنسـب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة دالة على صدقه ﷺ.

واختار الله تعالى: الفعل المضارع فى قـوله سبحانه (تطمئن) مرتين فى آية واحدة للإشـارة إلى تجدد الاطمئنـان واستمـراره، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد.

(١) آية رقم [٩] من سورة الحجر.

وافتتحت جملة ألا بذكر الله تطئمن القلوب، بأداة الاستفتاح المفيدة للتنبيه للاهتمام بِمضمونها، وللإغراء بالإكثار من ذكره عز وجل.

ولا تنافى بين قوله سبحانه: ﴿ .. أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾[1].

يعنى خافت قلوبهم، لأن وجلهم وخوفهم إنما هو عند ذِكر الوعيد والعِقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، أو وجلت من هيبته وخشيته سبحانه، وهو لا ينافى الاطمئنان والرجاء - فلو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا.

- وقوله تعالى: ﴿ .. أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ - آخر الآية ٢٨ من سورة الرعد.

أى ألا فانتبهوا أيها القوم، فإن بذكر الله تستأنس وتسكن قلوب المؤمنين، فلا يشعرون بِقلق ولا اضطراب.

وبمناسبة اطمئنان المؤمنين بذكر الله، فتلكم من صفات المؤمنين الذين عملوا الصالحات فأعقبها بذكر آيتهم فقال:

٣ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ - الآية رقم ٢٩ من سورة الرعد.

وفى هذا بيان للثواب الجزيل الذى أعده الله سبحانه للمؤمنين الصادقين، وطوبى مصدر كبشرى.

---

(١) من الآية رقم [٢] من سورة الأنفال.

أى أما المؤمنون أهل الأعمال الصالحة، فَقُرة عين لهم وبشرى لهم، وخير عـميم لهم، ونعِم ما يلقونه من الهناءة والسـعادة، وحسن المرجع والمنقلب بمشيئة الله تعالى.

والمآب: المرجع والمنقلب، من الأوْب، وهو الرجوع يقال آب يئوب أوبًا وإيابًا ومآبًا.

يعنى أن الذين آمنوا وعملـوا الأعمال الصالحـات، لهم فى آخرتهم عيش طَيِّب وخير عميم ومرجع حسن، إلى ربهم وخالقهم ورازقهم.

ثم بَيَّن الله تعالى أن إرسال محمـد ﷺ إلى الناس، ليس بِدعا فقد سبقه رسل كثيرون إلى أقوامهم، فقال تعالى:

٤ ـ ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ من الآية رقم ٣٠ من سورة الرعد.

والكاف فى قـوله: كذلك للتـشبيـه، حيث شـبه سـبحـانه إرسال الرسول ﷺ إلى الناس، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم.

فهذا الإرسال إلى الرسول محمد ﷺ كان مصحوبا بالمعجزة الباهرة وهى القرآن الكريم.

واسم الإشـارة «كـذلك» يعـود إلـى الإرسـال المأخـوذ من فِـعل أرسلناك.

وقوله تعالى: ﴿..فِي أُمَّةٍ..﴾، المراد بالأمة أمة الدعوة التى أرسل إليها الرسول ﷺ ـ فآمن من آمن وكفر من كفر وهى آخر الأمم.

ـ وقوله تعالى: ﴿..لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ من ٣٠ الرعد أى لتبلغهم هذا القرآن، الذى أنزلناه عليك، وفيه تعريض بمشركى مكة، وأنهم إذا استمروا فى طغيانهم؛ فسيـصيبهم ما أصاب الأمم الخالية التى كَذَّبت.

ـ وقوله: ﴿ .. لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... ﴾ من الآية ٣٠ من سورة الرعد.

والمقصود بقوله: ﴿ .. الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... ﴾ ـ هو تفخيم شأن القرآن الكريم الذى هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ، وأن وظيفة الرسول ﷺ قراءته عليهم ـ بتدبر واستجابة لِما يَدعوهم إليه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٠ من سورة الرعد.

فعليه اعتمادنا وإليه رجوعى وإياكم لِيحكم بيننا.

وجملة وهم يكفرون بالرحمن حالية.

أى والحال أنهم يكفرون بالرحمن، وينكرون معرفته، قل لهم يا رسول الله صلى الله عليك وسلم هو ربى الذى آمنت به، لا معبود سواه، ولا رب إلا إياه، عليه وحده اعتمدت، وفوضت أمرى إليه، وإليه توبتى ومرجعى، فيثيبنى على مجاهدتكم.

والغرض تسلية النبى ﷺ مما يلقاه من كفار قريش من الجحود والعِناد، فقد كذبت قبلهم الأمم، كما هو واضح من منطوق القرآن الكريم.

أى وأرسلناك أيها الرسول صلى الله عليك وسلم إلى هؤلاء الضالين لِتتلو عليهم ما يُنْقذهم من الضلال، ولكنهم عموا وصموا عن سماعه، والحال أنهم يكفرون بالرحمن العظيم الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء.

وأوثر اختيار اسم الرحمن من بين أسمائه تعالى ـ للإشارة إلى أن إرساله ﷺ ـ مبعثه الرحمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(١).

أى وما أرسلناك يا محمد ﷺ، إلا رحمة للخلق أجمعين، فهو رحمة مُهْداة فى الدنيا والآخرة ـ جاء بشريعة الرحمة، وفى الآخرة يكون شفيعًا بمشيئة الله تعالى.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يُبْطل كفرهم، فقال:

ـ ﴿ .. قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ آخر الآية ٣٠ من سورة الرعد.

أى: قل لهم أيها الرسول الكريم: الرحمن الذى تتجافون النطق باسمه الكريم هو وحده ربى وخالقى ورازقى، لا إله إلا هو مستحق للعبادة، وعليه ـ لا على أحد سواه ـ توكلت فى جميع أمورى، وإليه ـ لا إلى غيره ـ مرجعى وتوبتى وإنابتى.

فهذه الجملة اشتملت على أبلغ رد على المشركين.

ثم أشار الحق سبحانه إلى عظمة هذا القرآن، الذى أوحاه إلى نبيه ﷺ فقال:

٥ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى...﴾ من الآية رقم ٣١ من سورة الرعد.

---

(١) الآية رقم [١٠٧] من سورة الأنبياء.

والمراد بالقرآن هنا معناه اللغوى ـ أى الكلام المقروء، سواء دل على القرآن كله أو بعضه.

وجواب لو محذوف، لِدلالة المقام عليه، وهو فى أواخر الآية:

﴿ .. بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ... ﴾ ـ من الآية رقم ٣١ من سورة الرعد.

والمعنى: فلله الأمر جميعًا لا لِغيره سبحانه، فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره، وإن أُوتوا ما اقترحوا.

أى بل لله القدرة على كل شىء، «وهو إضراب عما تضمنته لو من معنى النفى، أى بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لِعلمه بأنه لا تلين له شكيمتهم»[١] ـ لِعنادهم، وأن الله لم يرد لهم الهداية والعياذ بالله.

والمعنى: ولو أن كتابًا مقروءًا من الكتب السماوية، سُيِّرت به الجبال، أى تحركت من أماكنها، أو قُطعت به الأرض أى شُقِقت وصارت قِطعا، أو كلم به الموتى بأن يعودوا إلى الحياة بعد قراءته عليهم.

ولو أن كتابًا مقروءًا كان من وظيفته، أن يَفعل ذلك لكان هذا القرآن، ولِكونه الغاية القصوى فى الهداية والتذكير والنهاية العظمى فى الترغيب والترهيب.

وبهذا يكون الغرض من الآية الكريمة، بيان عِظم شأن القرآن الكريم، وإبطال رأى الكافرين، الذين طلبوا من الرسول ﷺ آية كونية سواه.

---

(١) الفتوحات الإلهية للجمل جـ٤ ص١٢٦.

ويجوز أن يكون المعنى، ولو أن كتابًا مقروءًا من الكتب السماوية، نزل عليك يا رسول الله، فسُيِّرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لما آمن هؤلاء الذين عاندوا وجحدوا.

وفى مثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ...﴾[1].

وتنزيل الملائكة عليهم فى صورة بشر، وتكليم الموتى لهم، بأن يُنطقهم الله، ومعنى وحشرنا عليهم كل شىء قُبُلا، أى جمعنا لهم كل شىء من الخلائق عيانًا ومُشاهدة، وأعطيناهم هذه الآيات التى اقترحوها، فلا يؤمنوا إلا أن يشاء الله تعالى.

وعلى هذا يكون المقصود بيان غلوهم فى العناد والطغيان وتماديهم فى الكفر والضلال، وأن سبب عدم إيمانهم، ليس مَرَدُّه إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صِدقه ﷺ، وإنما سببه العِناد والمكابرة والعياذ بالله.

ووجه تخصيص هذه الأشياء من بين الخوارق التى طلبوها من الرسول ﷺ، ما ذكره ابن كثير «من أن المشركين قالوا للنبى ﷺ يا محمد لو سَيَّرت لنا جبال مكة حتى تتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض، كما كان سليمان يقطع لِقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يُحيى الموتى لِقومه، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[2]ـ ردا على تعنتهم وجحودهم.

---

(١) من الآية رقم [١١١] من سورة الأنعام.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥١٥.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا... ﴾ ـ من الآية ٣١ من سورة الرعد.

هذه إضراب عن مطالبهم المتعنتة ـ إلى بيان أن الأمور كلها بيد الله تعالى، وأن قدرته سبحانه لا يعجزها شيء.

أي أن الله تعالى لا يعجزه أن يأتى بالمقترحات التى اقترحوها ولكن إرادته سبحانه، لم تتعلق بما اقترحوه، لعلمه تعالى بعتوهم ونفورهم عن الحق، مهما أوتوا من الآيات، فالله تعالى لم يرد لهم الهداية.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا... ﴾ ـ من الآية رقم ٣١ من سورة الرعد.

تيئيس للمؤمنين من استجابة أولئك الجاحدين للحق، إلا أن يشاء الله لهم الهداية، والاستفهام للإنكار.

وأصل اليأس: قطع الطمع فى الشيء، والقنوط من حصوله.

يقول الآلوسى: «أفلم يعلموا وهى لغة هوازن»[1] ـ وهذا تعبير عربى أصيل.

وقال جماعة: أفلم يتبينوا.

وللعلماء فى تفسير هذه الجملة اتجاهان:

أحدهما: يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقى، وهو قطع الطمع فى الشيء، وعليه يكون المعنى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش، ويعلموا أن الله تعالى لو يشاء هداية الناس جميعًا، لاهتدوا، ولكنه لم يشأ ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب.

(١) تفسير روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٥٦ بتصرف.

«. . . فإنه ليس هناك حجة ولا مُعجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول، من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعًا مُتصدعًا من خشية الله. . »(١)ـ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون.

أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه، أن الفعل ييأس بمعنى يعلم، وعليه يكون المعنى، أفلم يعلم المؤمنون، أنه سبحانه لو شاء هداية الناس جميعًا لآمنوا بإذنه.

ولا تعارض بين المعنيين، بل كل منهما يُعضد الآخر، وهذا من بلاغة القرآن الكريم.

ثم حَذَّر سبحانه الكافرين من التمادى فى كفرهم وغيهم، وطغيانهم وبَشَّر المؤمنين بحسن العاقبة فقال تعالى: ﴿ .. وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ من الآية ٣١ وهى آخرها فى سورة الرعد.

والقارعة من القرع، وهى ضرب الشىء بشىء آخر بقوة وجمعها قوارع، والمراد بها الرَّزِية والمصيبة والكارثة والداهية وما شاكل ذلك.

أى ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة، وغيرهم تُصيبهم بما صنعوه من الكفر والضلال قارعة، أى مصيبة تفجعهم وتُزعجهم أو تحل تلك المصيبة فى مكان قريب من دارهم، فيتطاير شررها إليهم، حتى يأتى وعد الله بِهلاكهم وهزيمتهم، ونصر المؤمنين عليهم بمشيئة الله تعالى، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو سبحانه ناصر رسله، وعباده المؤمنين، وهو على كل شىء قدير.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥١٥.

وأبهم سبحانه ما يصيب الكافرين من قوارع، لتهويله وبيان شدته. والتعبير بقوله «لا يزال»، يُشير إلى أن ما أصابهم من قوارع كان موجوداً قبل نزول هذه الآية، واستمرت إصابته لهم بعد نزولها، لأن الفعل «لا يزال» ـ يدل على الإخبار باستمرار شيء واقع.

ولعل هذه الآية كان نزولها فى خلال سنين الجدب التي حلت بقريش، والتى أشار إليها القرآن بقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]ـ شديد يُغطى هؤلاء المكذبين المعاندين.

وعَبَّر الله تعالى عما أصاب هؤلاء المكذبين من بلاء بالقارعة، للمبالغة فى شدته وقوته، حتى إنه ليقرع قلوبهم؛ فيبهتهم ويزعجهم، ولذلك سميت القيامة بالقارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها والعياذ بالله.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ـ آخر الآية ٣١ من سورة الرعد.

وذلك لبيان أنهم بين أمرين كليهما مر، لأن القارعة، إما أن تصيبهم بما يكرهونه ويتألمون له، وإما أن تنزل قريبا منهم فتفزعهم وتقلق أمنهم، وهم مستمرون على ذلك، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا بمشيئته سبحانه.

وقد قضى سبحانه أمره بهزيمتهم فى بدر وفى غيرها، وأتم نصره على المؤمنين بفتح مكة، وبدخول الناس فى دين الله أفواجًا بفضله وبكرمه وبمشيئته سبحانه.

---

(١) الآيتان [١٠، ١١] من سورة الدخان.

وبهذا ينتهى المبحث الثامن فى بعض المطالب المتعنتة للكافرين والرد عليهـا وثواب المؤمنين الصادقين، وذلك مـن أول الآية رقم ٢٧ إلى آخر الآية رقم ٣١ من سورة الرعد.

ثم أخذت السـورة الكريمة بعد ذلك فى تسليـة الرسول ﷺ، وفى إقامة الأدلة على وحدانية الله تعـالى، وعلى بطلان الشرك، وفى بيان ما أعده الله للكافـرين من عِقاب، وأمـا أعده للمتـقين من ثواب من فضله ومن كرمه سبحانه.

المبحث التاسع

تسلية الرسول ﷺ وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وبطلان الشرك وما أعده الله تعالى للكافرين من عقاب وما أعده للمتقين من ثواب

ويضم الآيات من أول رقم ٣٢ إلى آخر رقم ٣٥ من سورة الرعد.

من أول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ... ﴾.

إلى آخر قوله تعالى: ﴿ .. تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ آخر الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد.

• **الآيات:**

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾.

تمهيد:

سَلَّى الله تعالى رسوله ﷺ بسبب تكذيب قومه له، وأن هذا دأب الأنبياء من قبل، ويجمع الله تعالى بين الترغيب والترهيب، بما أعده سبحانه للمتقين من ثواب، وما أعده للكافرين من عقاب.

أ- المفردات:

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ من الآية ٣٢ من سورة الرعد.

يقول الراغب: «هزئت به واستهزأت والاستهزاء ارتياد الهُزُؤ - ومما قُصد به المزح اتخذوها هزوا»[١] يعنى مهزلة.

- قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ...﴾ من الآية رقم ٣٣ من سورة الرعد.

يقول الراغب: «قام يقوم قِياما - فهو قائم، وتأتى بمعنى المراعاة للشيء وقوله: أفمن هو قائم على كل نفس - أى حافظ لها»[٢]- فالسياق يحدد المقصود.

- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ ... أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ - من الآية ٣٥ من سورة الرعد.

ومثل الجنة يعنى صفتها ونَعْتها.

والجملة فيها إيجاز بالحذف، أى وظلها دائم حُذف منه الخبر بدليل السياق.

- قوله تعالى: ﴿... تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ - من الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد وهى آخر الآية.

وفيها «المقابلة» بين اتقوا والكافرين من المحسنات البديعية.

ب- المناسبة:

يقول الرازى: «اعلم أن القوم، لَمَّا طَلَبوا سائر المعْجزات من الرسول ﷺ - على سبيل الاستهزاء والسخرية، وكان ذلك يشق على

(١) مفردات الراغب ص٥٤٠.

(٢) مفردات الراغب ص٤٣١.

رسول الله ﷺ وكـان يتأذى من تلكم الكـلمات، فأنزل الله تعـالى هذه الآية: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ من الآية ٣٢ من سورة الرعد وتلك تسلية للرسول ﷺ وتصْبير له على سـفاهة قومه، حيث ذكَّره الله تعالى بأن أقوامَ سـائر الأنبياء استهزؤا بهم، كـما أن قومك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) يستهزئون بك»[1] كذلك.

واعلم أنى سأنتـقم من هؤلاء المعاندين، كـما انتـقمت من أولئك المتقدمين، وسبحان من يكشف أسرار هؤلاء وأولئكم وكان ربك بصيرا.

جـ- التفسير للآيات من أول رقم ٣٢ إلى آخر رقم ٣٥ من سورة الرعد:

١ - قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ...﴾ من الآية رقم ٣٢ من السورة.

وفى هذا تسلية للرسول ﷺ - عمـا أصابه من حزن، بسبب تعنت المشركين معه، ومطالبتهم له بالمطالب المتعنتة التى ليس لها صلة بالدعوة، كطلبهم تسيير الجبال، وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وغيرها.

والاستهزاء المبالغة فى السخـرية والتهكم، والإملاء الإمهال والترك لمدة من الزمان.

والتنكير فى قـوله تعالى: ﴿بِرُسُلٍ﴾ - للتكثير، فقـد استهزأ قوم نوح به وكانوا كلما مروا به، وهو يصنع السفينة سخروا منه.

وهكذا استـهزأ قوم شعيب، وقـوم هود، واستهزأ فـرعون بموسى عليه السلام.

والمعنى: ولقد استهزأ الطغاة والجـاحدون، برسل كثيرين من قبلك أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم).

(١) تفسير الفخر الرازى جـ١٩ ص٦٢.

ـ وقوله تـعالى: ﴿ .. فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ ـ من الآيـة ٣٢ من سورة الرعد.

يعنى فأمهلتهم، وتركتهم مدة من الزمان فى أمن ودعة.

ثم أخذت هؤلاء المكذبين، أخذ عزيز مقتدر، فكيف كان عقاب.

فانظر كيف كان عقابى إياهم كان عِقابًا رادعًا فدمرناهم تَدميرا.

ـ وقوله تعالى: ﴿ ... فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ آخر الآية رقم ٣٢ من الرعد.

الاستفهام هنا للتعجيب بما حل بهم، والتهويل من شدته وفظاعته.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[1].

يعنى أن كثيـرا من القرى الظالمة، أخذتها أخذ عزيز مـقتدر، وإلى الله المرجع والمصير، فيحاسب كلا بما عمل بمشيئته سبحانه.

والله تعالى يملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلته.

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[2]ـ فهو سبحـانه يؤاخذ القرى الظالمة ويَبْطش بها على حين غفلة.

٢ ـ ثم أقام سبحانه الأدلة الساطعـة على وحدانيته، وعلى وجوب إخلاص العبادة له، فقال تعالى:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ... ﴾ ـ من الآيـة ٣٣ من سورة الرعد.

---

(١) الآية رقم [٤٨] من سورة الحج.

(٢) آية رقم [١٠٢] من سورة هود.

والمراد بالقيام هنا الحفظ والهيمنة، على جميع شؤون الخلق، والاستفهام للإنكار، والخبر محذوف، والتقدير: أفمن هو قائم أى رقيب ومهيمن على كل نفس، كائنة ما كانت، عالم بما تعمله من خير أو شر، فمجازيها به، كمن ليس كذلك؟

وحذف الخبر هنا وهو ـ كمن ليس كذلك ـ لدلالة السياق عليه، كما فى قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ...﴾[1] ـ أى كمن قسا قلبه.

وحسن حذف الخبر هنا فى آية: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ...﴾ ـ لأنه مُقابل للمبتدأ الذى هو «مَن» ـ ولأن قوله تعالى: ﴿.. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ...﴾ يدل عليه.

والمقصود من الآية الكريمة التى معنا فى سورة الرعد ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ...﴾ من الآية ٣٣ من السورة.

المقصود هو إنكار المماثلة بين الخالق العظيم، العليم بأحوال النفوس، وبين تلك الأصنام، التى أشركوها مع الله سبحانه فى العبادة، والتى لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لنفسها فضلا عن غيرها نفعًا ولا ضرًا.

ـ وقوله سبحانه: ﴿.. وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ...﴾ من الآية ٣٣ من سورة الرعد هذه الجملة حالية، والتقدير: أفمن هذه صفاته وهو الله تعالى القائم على كل نفس، كمن ليس كذلك، والحال أن هؤلاء الحمقى قد جعلوا لله شركاء فى العبادة ـ حاش لله.

فالمقصود من هذه الجملة إذن زيادة توبيخهم وتسفيه أفكارهم وعقولهم.

---

(١) من الآية رقم [٢٢] من سورة الزمر.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. قُلْ سَمُّوهُمْ...﴾ من الآية ٣٣ من سورة الرعد.

«أى صفوهم وبينوا أوصافهم فانظروا، هل لهم ما يستحقون به العبادة، ويستألهون به الشركة»[1].

وفى قوله: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ ـ تبكيت لهم وأى تبكيت.

أى: قل لهم أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم) سموهم شركاء إن شئتم، فإن هذه التسمية لا وجود لها فى الحقيقة والواقع، ولا تُخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم ـ فضلا عن غيرهم ـ نفعًا ولا ضرًا، لأن الله تعالى واحد لا شريك له.

وهذه التسمية إنما هى من عند أنفسهم، ما أنزل الله بها من سلطان.

والأمر فى قوله ﴿سَمُّوهُمْ﴾ ـ مُستعمل فى الإباحة المصحوبة بالتهديد، للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبآلهتهم التى سموها شركاء.

تمامًا كما يقول العاقل للأحمق الذى لا يُحسن الكلام، قل ما شئت، فإن كلامك لا وزن له ولا خير فيه.

يقول الرازى: «واعلم أن الله تعالى، لما قرر هذه الحجة، وهى أن القائم على كل نفس، ليس كمن لا يملك شيئا، زاد فى الحجاج، فقال: ﴿ .. قُلْ سَمُّوهُمْ...﴾ وإنما يقال ذلك فى الأمر المستحقَر الذى بلغ فى الحقارة، إلى أن لا يُذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: سَمِّه إن شئت.

يعنى: إنه أخس من أن يسمى ويُذكر، ولكنك إن شئت أن تضع له اسما فافعل.

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٤ ص١٢٨.

فكأنه تعالى قال: سموهم بالآلهة، والمعنى: سواء أسميتموهم بهذا الاسم، أم لم تسموهم به، فإنها فى الحقارة، بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها»[١]ـ فهذه تفاهة ما بعدها تفاهة.

ـ والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿ .. أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ... ﴾ من الآية من سورة ٣٣ الرعد.

هذا الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

يعنى قل أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم) لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم: قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ؛ أَمُخْبِرون الله بشركاء لا وجود لهم فى الأرض، لأنهم لو كان لهم وجود لَعلمهم الله سبحانه؛ لأنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

أم أنكم سميتموهم شركاء بظاهر من القول أى: بظن من القول لا حقيقة له فى الواقع ونفس الأمر.

يقول الآلوسى: «وقوله سبحانه: ﴿ .. أَمْ تُنَبِّئُونَهُ... ﴾ ـ من الآية ٣٣ من سورة الرعد أى بل أتخبرون الله تعالى بما لا يعلم فى الأرض ـ أى بشركاء مستحقين للعبادة، لا يعلمهم الله سبحانه، والمراد نفيها بنفى لازمها على طريق الكناية، لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمها، وهو الذى لا يعزب عن علمه شىء ـ فهى لا حقيقة لها أصلا.

وتخصيص الأرض بالذكر، لأن المشركين زعموا، أنه سبحانه له شركاء فيها.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ... ﴾ ـ من الآية رقم ٣٣ من سورة الرعد.

---

(١) الفخر الرازى جـ١٩ ص٦٣.

أى بل أتسمونهم شـركاء بظاهر من القول، من غير معنى مُـتحقَق فى نفس الأمر.

وروى عن الضحاك وقتادة: أن الظاهر من القول: الباطل منه ـ أى باطل زائد. . .»[1]ـ لا أساس له من الصحة، والله أعلم.

ـ وقولـه سبحـانه: ﴿ .. بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من الآية رقم ٣٣ سورة الرعد وهى آخر الآية.

وفى هذا إضـراب عن حـجـاجـهم، وإهمـال لِـشـأنهم، وتزيين لضلالهم، وجعله فى صورة حسنة.

والمكر: صـرف الغير عـما يريده، بحـيلة، والمراد به هنا: كـفرهم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين.

والمعنى: دع عنك أيهـا الرسـول الكريم (صلـى الله عليك وسلم) مجادلتهم، لأنه لا فائدة من ورائهـا، فإن هؤلاء الكافرين، قد زين لهم الشـيطان ورؤساؤهـم فى الكفر، مكـرهم وكيـدهم للإسـلام وأتباعـه، وصـدوهم عن سبـيل الحق، وعن سـواء الصـراط، ومن يُضْلله الله بأن يخلق فيه الضلال لِسوء استعـداده، فماله من هاد يهديه ويرشده، إلى ما فيه نجاته.

هذا وقد اشتملت الآية على ألوان من الحـجج الساطعة، التى تثبت وجوب إخلاص العبادة لله وتُبطل الشرك والشركاء.

ثم بين سبحانه سوء مصير هؤلاء الكافرين فقال:

٣ ـ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ الآية رقم ٣٤ من سورة الرعد.

---

(١) روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٦١.

أى لهم عـذاب شديد فى الحـياة الدنيـا، ينزله الله تعـالى بهم عن طريق القوارع والمصائب الـتى يُرسلها عليهم، والهزائم التى يوقـعها بهم المؤمنون فى دار الدنيا.

ولعذاب الآخرة أشق من عذاب الدنيا كـمًّا وكيفًا، وما لهم من الله من واقٍ، أى حافظ يعصمهم من عذابه.

ثم أعقب ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين فقال:

٤ ـ ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا... ﴾ من الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد.

والمراد بالمثل هنا: الصفة العجيبة.

أى صِفة الجنة التى وعد الله إياها من اتقاه، وصان نفسه عن كل ما لا يرضيه.

فـصفـة هذه الجنة الـتى وعدها الله المتـقين، أنهـا تجـرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار، وأنها أكلها دائم، أى ما يؤكل فيها لا انقطاع لأنواعه، وظلها كذلك دائم.

وقوله تـعالى: ﴿ مَّـثَلُ ﴾ ـ مبتدأ خبره مـحذوف: أى فيما يقص ويُتلى عليكم صفـة الجنة، وجملة «تجرى» ـ مفسِّـرة أو مستأنَفة اسـتئنافًا بيانيًّا، أو حال من ضمير «وعد».

وجملة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ خبر ثان، وصفة لموصوف محذوف، أى: مثل الجنة، جنة تجرى من تحتها الأنهار.

وقوله: ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ ـ مبتدأ محذوف الخبر، أى كذلك»[1].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمى جـ٦ ص٣٦٩ بتصرف والتحرير والتنوير جـ١٣ ص١٥٥.

وهذه النواحى الإعرابية من إعجاز القرآن الحكيم.

واسم الإشارة فى قوله: ﴿ .. تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ـ من الآية ٣٥ من سورة الرعد.

فاسم الإشارة فى تلك يعود على الجنة التى أعدها الله للمتقين.

أى تلك الجنة المنعوتة بما ذكـر هى مآل المتقين الذين استـقاموا على طريق الحق والحقيقة ـ فهنيئًا لهم.

وعلى عادة الذكر الحكيم، فى أسلوب التـرغيب والترهيب، أنه إذا ذكر عاقبــة المتقين، وما لهم من جنان، يتبعه بذكـر عقاب المكذبين بالنار فى قوله سبحانه:

ـ ﴿ ..وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد.

يعنى مصير الكافرين إلى جهنم وبئس القرار.

وبذلك نرى الآيات الكريمات، قـد ساقت من التوجيـهات ما فـيه التسلية لرسـول الله ﷺ، عما أصابه من قومه، ومـا فيه أوضح الدلائل والبراهين، وأبلغـها على وحدانيـة الله تعالى، ووجوب إفراده بالعـبادة، وما فيه البشارة للمؤمنين والتهديد للكافرين.

وبهذا ينتهى المبحث التاسع من هذا الكتاب.

ثم ينتـقل الحديث بعـدها، إلى المبحث العـاشر، فى إعـلان منهج الحق، والرد على الشبهات، وتهديد الأعداء بسوء العاقبة والعياذ بالله.

المبحث العاشر

إعلان منهج الحق والرد على الشبهات وتهديد الأعداء بسوء العاقبة

ويضم الآيات من أول رقم ٣٦ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ...﴾ - إلى آخر الآية ٤٣ بقوله تعالى: ﴿.. قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، وهى آخر سورة الرعد.

الآيات:

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

تمهيد:

ثم ختم سبحانه السورة الكريمة ببيان موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم وبأمر الرسول ﷺ أن يُعلن منهجه بِصراحة وثبات دون التفات إلى أهواء مُعارضيه، وبالرد على الشبهات التى أثارها أعداؤه حوله، وحول دعوته، وتهديد هؤلاء الأعداء بسوء العاقبة إذا استمروا فى طغيانهم وضلالهم.

أ- المفردات:

- قوله تعالى: ﴿.. وَمِنَ الأَحْزَابِ...﴾ - من الآية رقم ٣٦ من سورة الرعد.

وهى الطوائف المتفرقة من أحزاب اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم جماعات متفرقة، لا تجمعهم عقيدة واحدة، تحزبوا وتألبوا على رسول الله ﷺ.

- قوله تعالى: ﴿.. وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾ - آخر الآية رقم ٣٦ من سورة الرعد.

مآبى يعنى مرجعى ومصيرى.

- قوله تعالى: ﴿.. مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾ آخر الآية ٣٧ من سورة الرعد.

أى ليس لك من الله من ولى ولا واقٍ يعنى لا ناصر ينصرك فينقذك منه، إن هو أراد عقابك ولا واق يقيك عذابه إن شاء عذابك، فاحذر أن تتبع أهواءهم وتنهج نهجهم.

- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ...﴾ من الآية ٣٨ من سورة الرعد.

فيها جناس اشتقاق بين أرسلنا ورُسلا.

ـ قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الآية رقم ٣٩ من سورة الرعد.

هناك الطباق بين يمحو ويثبت ـ المعنى وعكسه.

المحو: أى إزالة الأثر من كتابة أو غيرها ـ وعكسه الإثبات.

وأم الكتاب: أصل كل الكتب، والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها.

والمعنى: «يمحو الله من جاء أجله ويُثبت من بقى أجله»[١] ـ فكل شيء عنده بقضاء وقدر.

ـ قوله تعالى: ﴿.. فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ...﴾ من الآية رقم ٤٠ من سورة الرعد.

والبلاغ: اسم بمعنى التبليغ ـ قصر إضافى من باب قصر الموصوف على الصفة ـ أى ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ.

ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ ـ من الآية رقم ٤١ من سورة الرعد.

وفيها مجاز مرسل ـ أى يأتيها أمرنا وعذابنا.

أى أو لم ير المشركون أنا نمكن للمؤمنين من ديارهم، ونفتح للرسول ﷺ الأرض بعد الأرض، حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام.

---

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٧.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴾ من الآية رقم ٤٢ من سورة الرعد.

المكر: تدبير أمر فى خَفاء، وقد يكون فى الخير أو فى الشر.

ـ قوله تعالى: ﴿ .. وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٤١ من سورة الرعد.

أى ليس يتعقب حكمه أحد بِنقض أو تَغْيير وهو سريع الانتقام ممن عصاه.

ب ـ المناسبة:

بعد أن بين سبحانه فى الآية رقم ٣٥ من السورة عقبى الذين اتقوا ربهم وراقبوه، وأنهم فى جنات النعيم، وفتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين، وأقفل الباب على الكافرين وأن عُقباهم النار وبئس القرار.

بين بعد ذلك أن «أهل الكتاب انقسموا فئتين فِئة فرحت بنزول القرآن، وفرقة أنكرته وكفرت ببعضه.

ففى الآية: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ... ﴾ من الآية رقم ٣٦ من سورة الرعد ـ ذكر أبو حيان أنها نزلت فى مؤمنى أهل الكتابين ـ ذكره الماوردى واختاره الزمخشرى»[1].

وأهل الكتابين يعنى التوراة والإنجيل، والتوراة هى العهد القديم والإنجيل هو العهد الجديد وكل منهما يُعرف بالكتاب المقدس.

(١) البحر المحيط لأبى حيان جـ٦ ص٣٩٥ وتفسير المراغى جـ٥ ص٦٤.

جـ- التفسير للآيات من أول رقم ٣٦ من سورة الرعد:

من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ إلى آخر الآية رقم ٤٣ من سورة الرعد ﴿.. وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهى آخر السورة الكريمة.

١ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ من الآية رقم ٣٦ من سورة الرعد.

ومعنى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ...﴾: هم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا، يقرءون القرآن قراءة حقة، كما أُنزل، أولئك هم المؤمنون حقًّا، كما قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ....﴾[1].

هم طائفة من اليهود والنصارى أسلموا، يقرءون القرآن قراءة حَقَّة كما أُنزل، فأولئك هم المؤمنون حقا دون المعاندين المحرفين لكلام الله تعالى.

«ومن اليهود كعبد الله بن سَلام وأصحابه، والنصارى من الحبشة واليمن ونَجْران»[2].

هؤلاء يفرحون بما أنزل إليك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) - من القرآن: «لأنه يحصل لهم به من المعانى والدلائل، وكشف الشبهات ما لم يحصل لهم من الكتب السالفة»[3]- ففى هذا القرآن من المعارف والمزايا الباهرة التى لا تحصى.

(١) من الآية رقم [١٢١] من سورة البقرة.

(٢) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٥.

(٣) محاسن التأويل للقاسمى جـ٩ ص٣٧٠.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ... ﴾ ـ من الآية رقم ٣٦ من سورة الرعد.

ففى هذه بيان لمن بقى على كفره من أهل الكتاب وغيرهم.

والأحزاب: جمع حزب، ويطلق على مجموعة من الناس اجتمعوا، من أجل غاية مُعينة.

أى ومن أحزاب الكفر والضلال، من ينكر بعض ما أنزل إليك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم)، لأنه يُخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم.

ولم يذكر القرآن هذا البعض الذى يذكرونه، إهمالا لِشأنهم، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٦ من سورة الرعد.

يعنى إليه وحده سبحانه الجزاء ـ أمر من الله لِنبيه ﷺ أن يصدع بما يأمره به دون تردد غير مكترث بِمنكر بعض ما أنزل إليك.

أى: قل أيها الرسول الكريم ـ لكل من خالفك فيما تدعو إليه ـ إنما أُمرت أن أعبد الله وحده، ولا أشرك به، بوجه من الوجوه، إليه وحده مرجعى، لا إلى أحد غيره، وفيه إلزام للمنكرين ورد على إنكارهم.

فالآية تضمنت المدح، لمن عرف الحق ففرح بوجوده، والذَّم لمن أنكروه وجحدوا وعاندوا، والأمر لِنبيه ﷺ بالسير فى طريقه بدون خَشْية من أحد.

ثم ساق سبحانه بعد ذلك جانبًا من الفضائل التى امتاز بها القرآن الكريم.

٢ ـ فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا... ﴾ ـ من الآية رقم ٣٧ من سورة الرعد.

والكاف للتشبيه، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من «أنزلناه».

وضمير الغائب فى أنزلناه، يعود إلى ما أنزل إليك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) فى قوله فى الآية السابقة ﴿ .. يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ... ﴾ من الآية رقم ٣٦ من السورة.

ـ وقوله سبحانه ﴿ .. حُكْمًا عَرَبِيًّا.. ﴾ ـ هذه الجملة حال من ضمير الغائب.

والمعنى: ومثل ذلك الإنزال البديع الجامع لألوان الهداية، والإعجاز، أنزلنا عليك القرآن يا محمد ﷺ حكما أى حاكما بين الناس ﴿ .. عَرَبِيًّا.. ﴾ ـ أى بلسان عربى مبين هو لسانك ولسان قومك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم).

والجملة الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن الكريم.

الفضيلة الأولى: من جهة معانيه ومقاصده، وهداياته وحِكمه وأحكامه وتشريعاته وآدابه، وهى المعبر عنها بكونه حكما.

والفضيلة الثانية: من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهى المعبر عنها بكونه عربيا بلسان عربى مبين.

أى نزل بِلغة العرب، التى هى أفصح اللغات وأجملها على وجه الجملة.

وفى كونه عربيا امتنان على العرب المخاطَبين، حيث إنه نزل بِلغتهم الفصيحة، فكان من الواجب عليهم، أن يُقابلوه بالفرحٍ والسرور والتسليم لأوامره ونواهيه، فهو الكتاب الذى فيه شرفهم وعِزهم، وسؤددهم - قال عز من قائل:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(١).

واللام للقسم، أى والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتابًا عظيمًا مجيدًا، لا يُماثله كتاب، فيه شرفكم وعزكم، لأنه بلغتكم التى تتكلمون بها، أفلا تعقلون هذه النعمة، فتؤمنوا بما جاءكم به محمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾(٢).

يعنى: وإن هذا القرآن لشرف عظيم لك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) ولِقومك، إذ أُنزل بلغتهم، وعلى رجل منهم، وسوف تُسألون عن شكر هذه النعمة.

وفى ذلك تعريض بغباء مشركى العرب، حيث لم يشكروا الله تعالى على هذه النعمة، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن بالعناد والعصيان والتكبر.

ثم ساق الحق سبحانه تحذيرا للأمة كلها، فى شخص نبيها ﷺ من اتباع أهواء كل كافر أو فاسق، فقال تعالى:

- ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ - آخر الآية رقم ٣٧ من سورة الرعد.

---

(١) الآية رقم [١٠] من سورة الأنبياء.

(٢) الآية رقم [٤٤] من سورة الزخرف.

واللام فى قوله: ﴿ولَئِن﴾ موطِّئة للقسم، لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمن يتبع أهواء الكافرين.

والأهواء: جمع هوى، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق والحقيقة، ومطالبهم المتعنتة.

ـ والمراد بقوله: ﴿ .. بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ... ﴾ ـ من الآية ٣٧ من سورة الرعد.

المراد بها بعد ما بلغه وعلمه الرسول ﷺ من الدين، عن طريق الوحى الصادق الذى أوحاه الله إليه.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ من الآية ٣٧ من سورة الرعد.

والولى: الناصر والمعين والقريب والحليف والصديق.

والواقي: المدافع عن غيره.

والمعنى: ولئن اتبعت يا محمد (صلى الله عليك وسلم) على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين، فيما يطلبونه منك، من بعد ما جاءك من العلم اليقينى الثابت بالبراهين والحجج، بأن الإسلام هو الدين الحق، فما لك من عقاب الله من ولى يلى أمرك وينصرك ولا واق يقيك من حسابه جل شأنه.

فكأنه سبحانه يقول: لو اتبع الرسول ﷺ أهواء هؤلاء الضالين على سبيل الفرض، لَعاقبه سبحانه، وأحق بهذا العقاب من كان دونه من الفضل والمنزلة.

وشبيه بهذه الآية قوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(١).

واللام موطئة للقسم، أى والله لقد أوحى إليك، وإلى الأنبياء قبلك، لئن أشركت يا محمد (صلى الله عليك وسلم) ليبطلن ويفسدن عملك، ولتكونن فى الآخرة من جملة الخاسرين، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فالرسول ﷺ قد عصمه الله، وحاشا له أن يشرك بالله، وهو الذى جاء لإقامة صرح الإيمان والتوحيد بإذن الله وتوفيقه.

ثم بين سبحانه أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول ﷺ ليس إلا من قبيل التعنت والجحود، لأن الرسل جميعًا كانوا من البشر.

٣ ـ فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً... ﴾ من الآية رقم ٣٨ من سورة الرعد.

أى: ولقد أرسلنا رسلا كثيرين من قبلك، يا محمد (صلى الله عليك وسلم)، وجعلنا لهؤلاء الرسل أزواجًا يسكنون إليهن، وذرية يعنى أولادا وأحفادا تقر بهم أعينهم كسائر البشر.

وفى هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء، فهو بشر كسائر البشر، يتزوج وينجب.

يعنى هذا شأن رسل الله المرسلين، قبل هذا الرسول، فما لكم تنكرون عليه ما كان عليه سائر الرسل.

---

(١) الآية رقم [٦٥] من سورة الزمر.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ من الآية رقم ٣٨ من سورة الرعد.

وفى هذا رد على ما طلبه هؤلاء المتعنتين من الرسول ﷺ من معجزات وخوارق للعادات.

أى وما صح ولا استقام، ولم يكن فى وسع رسول أن يأتى بما يُقترح عليه، إلا بإذنه تعالى، وبإرادته المبنية على الحِكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات «لأن الآيات مُعينة بإزاء الأوقات التى تحدث فيها ـ من غير تبديل ولا تقديم ولا تأخير»[1]ـ وفى ذلك حكمة.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ـ آخر الآية رقم ٣٨ من سورة الرعد.

وفى هذا تهديد للمشركين الذين كانوا يستعجلون حصول المقترحات التى طلبوها من الرسول ﷺ.

«لكل كتاب أجل، أى لكل أمر كتبه الله أجل مُعين ووقت معلوم، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها، ولا عذاب مما خُوفوا به بحاصل فى غير وقته، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم كلها كتبت فى آجال ومدد معينة لا تقديم فيها ولا تأخير»[2]ـ وتلكم من حِكم الله وتقديره ومشيئته سبحانه.

ثم بين الحق تعالى بعد ذلك مظهراً من مظاهر شمول قدرته وسعة عِلمه وعظيم حِكمته:

(١) تفسير القاسمى جـ٦ ص٣٧١.
(٢) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٦.

٤ ـ فقال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ آية ٣٩ من سورة الرعد.

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُو﴾ ـ من المحو، وهو إذهاب أثر الشيء بعد وجوده، وقوله ﴿يُثْبِتُ﴾ من الإثبات، وهو جعل الشيء ثابتًا قارًا في مكان مَّا.

وأم الكتاب: أصل الكتاب، والمراد به اللوح المحفوظ، أو عِلمه سبحانه المحيط بكل شيء.

«والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشيء أُمًّا له»[١]ـ يعنى أساسًا له.

فهو يُوجِد تارة، ويُعْدِم أخرى، ويُحْيى تارة، ويُميت أخرى ويُغْنى تارة ويُفْقِر أخرى.

والمعنى يمحو الله تعالى ما يشاء محوه، ويثبت ما يريد إثباته من الخير أو الشر، ومن السعادة أو الشقاوة، ومن الصِّحة أو المرض أو الغنى أو الفقر، وغير ذلك مما يتعلق بأمور خلقه.

وعنده سبحانه الأصل الجامع، لِكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون الواسع.

يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ....﴾[٢].

---

(١) تفسير الرازى ج١٠ ص٧١.

(٢) الآية [٢٢] وجزء من الآية [٢٣] من سورة الحديد.

يعنى أن ما يحدث فى الأرض من مصيبة من المصائب كقحط، وزلزلة وعاهة فى الزروع، ونقص فى الثمار، وما يُصيب الأنفس من الأمراض والأوصاب والفقر، وذهاب الأولاد إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ، من قبل أن نخلقها ونُوجدها، فالأمور كلها مُقدرة فى الأزل، مكتوبة فى اللوح المحفوظ قبل أن تكون، وإثبات ذلك سهل هين على الله، وإن كان عسيراً على العِباد، والحِكمة فى إعلامنا عن كون هذه الأشياء، واقعة بالقضاء والقدر، لكيلا نحزن على ما فاتنا من نعيم الدنيا ولكى لا نبطر على ما أعطانا الله من زهرة الدنيا ونعيمها، والحزن المنهى عنه هو ما يوجب القنوط، والفرح المنهى عنه هو الذى يورث الأشر والبطر، وليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صَبْراً، ونِعمته شكراً.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١).

والاستفهام هنا تقريرى: أى لقد علمت يا محمد (صلى الله عليك وسلم) أن الله أحاط علمه بما فى السماء والأرض، فلا تخفى عليه أعمالكم إن ذلك كله مسطر فى اللوح المحفوظ، فحصر المخلوقات تحت علمه، والإحاطة بها سهل عليه، يسير لديه.

- وفى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ...﴾ - من الآية ٣٩ من سورة الرعد.

قال الحسن: «يمحو الله من جاء أجله، ويثبت ما بقى أجله».

---

(١) الآية رقم [٧٠] من سورة الحج.

وقال الربيع: يقبض الله الأرواح حين النوم، فيميت من يشاء ويمحوه، ويُرجع من شاء.

وقال آخرون: يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ، ويثبت ما يشاء، فلا ينسخه ولا يُبدله.

وقال آخرون: يمحو الله المِحن والمصايب بالدعاء.

فيمحو الله ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عُمر، ويُبدل هذا بهذا، ويجعل هذا مكان هذا، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون»(١).

والمحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه وتعالى.

ويقول الآلوسى: «فى قوله يمحو الله ما يشاء: أى ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام، لِما تقتضيه الحِكمة بحسب الوقت ويثبت بدله ما فيه الحكمة، أو يبقيه على حاله غير منسوخ.

وقال عكرمة يمحو بالتوبة جميع الذنوب، ويُثبت بدل ذلك حسنات لِقوله تعالى:

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ... ﴾(٢)»(٣).

أى يكرمهم الله فى الآخرة، فيجعل مكان السيئات حسنات من فضله وكرمه وجوده وإحسانه.

---

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٧.

(٢) من الآية رقم [٧٠] من سورة الفرقان.

(٣) روح المعانى للآلوسى جـ١٣ ص١٦٩.

وكل ما قيل من أقوال فى تفسير هذه الآية ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ...﴾ من الآية ٣٩ من سورة الرعد ليس بينه تعارض، وكل شىء بقضاء وقدر والله تعالى أعلم.

- وقوله سبحانه: ﴿.. وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ - آخر الآية ٣٩ من سورة الرعد.

وقيل «إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وبما هو خالق»[١] إلى يوم القيامة.

وبعد أن أثبت الله سبحانه، أن كل شىء بقدر، انتقل بعدها إلى أنه قد يُعجل بالعقوبة لهؤلاء المكذبين أو يؤخرهم إلى أجل مسمى أو يتوفاك الله يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم) لذا قال تعالى:

٥ - ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ الآية رقم ٤٠ من سورة الرعد.

وفى هذا حض للرسول ﷺ على المضى فى دعوته بدون تسويف أو تأجيل.

و(ما) فى قوله «وإما نرينك» - مزيدة لتأكيد معنى الشرط، والأصل وإن نرك، والكاف مفعول أول، وبعض الذى نعدهم مفعول ثان، وجواب الشرط محذوف، والسياق المقبل يدل عليه.

والمعنى: وإما نرينك يا محمد (صلى الله عليك وسلم) بعض الذى توعدنا به أعداءك من العقاب الدنيوى، فذاك شفاء لصدرك وصدر أتباعك.

- وقوله سبحانه: ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من الآية رقم ٤٠ من سورة الرعد.

---

(١) تفسير الشوكانى جـ٣ ص١٢٧.

للإشارة إلى أن ما يُصيبهم من عذاب دنيوى، هو بعض العذاب المعد لهم، أما البعض الآخر وهو عذاب الآخرة، فهو أشد وأبقى، وفى ذلك عِظة.

ولقد صدق الله تعالى وعده لِنبيه ﷺ ـ فأراه قبل أن يفارق الدنيا جانبًا من العذاب الذى أنزله بأعدائه، فسلط على مشركى مكة الجدب والقَحْط.

كما سلط الله عليهم المؤمنين فهزموهم فى بدر والفتح وغيرهما.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ... ﴾ شرط آخر لِعطفه على الشرط السابق ﴿ .. وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ.. ﴾ ـ وجواب هذا الشرط الثانى محذوف كذلك.

والتقدير: أو نتوفينك قبل ذلك، فلا تهتم واترك الأمر لله تعالى.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ... ﴾ ـ من الآية رقم ٤٠ من سورة الرعد.

وهذا تعليل للجواب المحذوف، أى سواء أُريت عذابهم، أم لم تره، فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس.

ـ وقوله تعالى: ﴿ .. وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ـ آخر الآية رقم ٤٠ من سورة الرعد.

أى وعلينا وحدنا الحساب ـ أى محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة، دون جبرهم على اتباعك يا رسول الله (صلى الله عليك وسلم).

ثم وبَّخ الله سبحانه المشركين لِعدم تفكرهم وتدبرهم واتعاظهم بآثار من قبلهم، وطَيَّب نفس النبى ﷺ بطلوع تباشير الظفر.

٦ ـ فقال جل شأنه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾ من الآية ٤١ من سورة الرعد.

والهمزة للاستفهام الإنكارى، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى أنكروا نزول ما وعدناهم.

والخطاب لِمشركى مكة، ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال.

والمراد بالأرض هنا أرض الكفرة والظالمين.

والأطراف جمع طرف وهو جانب الشىء.

والمعنى: أَعَمِىَ هؤلاء الكافرون عن التفكر والتدبر والاعتبار، ولم يروا كيف أن قدرة الله القاهرة، قد أتت على الأمم القوية الغنية، حين كفرت بِنعمه سبحانه، فصيرت قوتها ضعفًا وغناها فقرًا وعزَّها ذُلاً وأمنها خوفًا، وحصرتها فى رقعة ضيقة من الأرض، بعد أن كانت تملك الأراضى الفسيحة والبقاع المترامية الأطراف؛ ففتحها المسلمون شيئًا فشيئًا، والله غالب على أمره.

فالآية الكريمة بِشارة للمؤمنين، وإنذار للكافرين الضالين.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى:

﴿.. أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾(١).

أى أفلا ينظرون فيعتبروا، أننا نأتى أرضهم، فننقصها من أطرافها بالفتح على النبى ﷺ، وتسليط المسلمين عليها ـ وقوله:

---

(١) من الآية رقم [٤٤] من سورة الأنبياء.

﴿ ..أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ من الآية [٤٤] من سورة الأنبياء استفهام للتقريع والإنكار، والحالة هذه أنهم هم المغلوبون والأخسرون والأرذلون.

وفيما ذكره الآلوسى: «أن المراد بانتقاص الأرض، موت أشرافها وذهاب العلماء منها، وعليه يكون المراد بالأرض جنسها وبالأطراف الأشراف والعلماء.

وتقرير الآية عليه: أو لم يروا أنا نحدث فى الدنيا من الاختلافات، خرابًا بعد عِمارة، وموتًا بعد حياة، وذُلاً بعد عِز، وهكذا الأمر أن يجعل الكفار أذلة، بعد أن كانوا أعزة»[1]ـ والله غالب على أمره.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ... ﴾ ـ من الآية ٤١ من سورة الرعد.

بيان لِعلو شأن حكمه تعالى، ونفاذ أمره سبحانه.

والمعقب: هو الذى يتعقب فِعل غيره، أو قوله فيبطله أو يُصححه.

يعنى: والله تعالى يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه، لا راد لِحكمه، ولا دافع لِقضائه، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل.

وقد حكم سبحانه بِعزة الإسلام، وعلو شأنه وشأن أتباعه على سائر الأمم والأديان، وقد جرت سُنته أن الأرض يستَعْمِرها عباده الصالحون بالعدل فيها وترك الظلم.

وقد حُكم للمسلمين بالعزِّ والإقبال، وعلى أعدائهم بالإدبار، وركود ريحهم، لما سلكوه من الظلم، والفساد فى الأرض.

---

(١) تفسير الآلوسى جـ١٣ ص١٧٣.

ـ وقوله سبحانه: ﴿ .. وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ من الآية رقم ٤١ من سورة الرعد وهى آخر الآية.

أى وهو سبحانه سريع المحاسبة والمجازاة، لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من الإحصاء والعَدِّ، فهو تعالى مُحيط بكل شيء، فلا تستبطئ عقابهم، أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم)، فإن ما وعدناك به واقع لا محالة، وكل آت قريب بمشيئة الله تعالى.

وسوف يحاسبهم فى الآخرة، كِفاء ما دَنَّسوا به أنفسهم، وران على قلوبهم، بارتكاب الآثام بعد أن يُعذبهم الله فى الدنيا بالقتل والأسر والله غالب على أمره.

ثم بين سبحانه أن قوم الرسول ﷺ ـ ليسوا ببدع فى الأمم، وبذلك زاد فى تسلية رسوله ﷺ ـ وفى تثبيست فؤاده فقال تعالى:

٧ ـ ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾ من الآية ٤٢ من سورة الرعد.

فقد مكر كثير ممن قبلهم بأنبيائهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مُقتدر.

والمكر صرف الغير بحيلة، أو إيصال المكروه خِفية، والمراد بمكر الذين من قبلهم إضمارهم السوء لِرسلهم.

والمراد بمكر الله تعالى هنا، عِلمه سبحانه بما يُبيتونه وإحباطه لِمكرهم وإنجاؤه لرسله عليهم الصلاة والسلام.

والمعنى: وقد مكر الكفار الذين سبقوا قومك يا محمد (صلى الله عليك وسلم) برسلهم، وحاولوا إيقاع المكروه بهم.

«كما فعل النمرود بإبراهيم، وفرعون بموسى، واليهود بعيسى، ثم دارت الدائرة على الظالمين، وأهلك الله المفسدين»[١]- ونصر الله رسله، لأنه عز وجل له المكر جميعًا، ولا اعتداد بمكر غيره، لأنه معلوم له.

وفى هذا تسلية لرسوله ﷺ، وتعبير بأن العاقبة له لا محالة بإذن الله تعالى.

- وقوله تعالى: ﴿.. فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾ - من الآية ٤٢ من سورة الرعد.

قال الجمل: هذه الجملة تعليل لمحذوف تقديره فلا عبرة بمكرهم ولا تأثير له، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله: ﴿.. فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا..﴾ من الآية ٤٢ من سورة الرعد أى لا تأثير لمكرهم أصلاً، لأنه معلوم لله تعالى وتحت قدرته، وأثبت لهم المكر باعتبار الكسب»[٢] - ونفاه عنهم لأن الله أبطله.

«فمكر الماكرين لا يضر إلا بإذنه تعالى، ولا يؤثر إلا بتقديره، فيجب ألا يكون الخوف إلا من الله تعالى»[٣] - وفى هذا أمان له ﷺ - من مكرهم.

- وقوله تعالى: ﴿.. يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ...﴾ - من الآية رقم ٤٢ من سورة الرعد.

وهذه بمنزلة التعليل لجملة ﴿.. فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾ من الآية السابقة، أى هو سبحانه له المكر جميعًا، لأنه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس، فيعصم أولياءه، ويُعاقب الماكرين، لِيوفى كل نفس جزاء ما كسبت وبما تستحقه من خير أو شر.

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٨.
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ٣ ص٥١٢.
(٣) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٨.

وفى هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين.

ثم أكد الله تعالى هذا التهديد بقوله سبحانه:

﴿.. وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ـ آخر الآية رقم ٤٢ من سورة الرعد.

وفى هذا تهديد للكافرين بالحق الذى جاءهم به رسول الله ﷺ.

أى وسيعلم الكافرون عندما ينزل بهم العذاب، لمن تكون العاقبة الحميدة، أهى لهم كما يزعمون، أم للمؤمنين، ولا شك أنها للمؤمنين، وإن جهل الكفار ذلك من قبلُ.

فالجملة الكريمة تحذير للكافرين من التمادى فى كفرهم، وتبشير للمؤمنين بأن العاقبة لهم.

وقد ختم سبحانه السورة الكريمة بالشهادة للرسول ﷺ بأنه صادق فى رسالته ـ فقال تعالى:

٨ ـ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً...﴾ ـ من الآية رقم ٤٣ من سورة الرعد.

أى لست مرسلا من عند الله تعالى، وقد حكى سبحانه قولهم الباطل هذا بِصيغة المضارع، للإشارة إلى تكرر هذا القول منهم، ولاستحضار أحوالهم العجيبة الدالة على إصرارهم على العناد والجحود.

أى يقول الجاحدون لنبوتك، الكافرون برسالتك لست مرسلا من عند الله، لِتُخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له وتنقذهم من عبادة الأصْنام، وتصلح حال المجتمع البشرى، وتمنع عنه الظلم والفساد.

وردًّا على هذا الافتراء قال سبحانه:

ـ ﴿ .. قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ... ﴾ من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

أى: قل حسبى الله شاهدًا بتأييد رسالتى وصدق مقالتى، إذ أنزل علىَّ هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة، أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لِبعض ظهيرًا.

فهذا أمر من الله لِرسوله ﷺ أن يرد عليهم بما يُخرس ألسنتهم، والباء الداخلة على اسم الجلالة مزيدة للتأكيد.

والذى يشهد بنبوة الرسول ﷺ من أسلم من أهل الكتابين.

كما فى قوله تعالى:

ـ ﴿ .. وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ آخر الآية ٤٣ وهى آخر السورة الكريمة الرعد.

«وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سَلام والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسى وغيرهم»[١]ـ فإنهم يشهدون بنبوة الرسول ﷺ فى كتبهم.

والمعنى: قل لهم أيها الرسول الكريم (صلى الله عليك وسلم) ـ تكفى شهادة الله بينى وبينكم، فهو يعلم صِدْق دعوتى، ويعلم كذبكم، ويعلم ذلك أيضًا كل من كان على علم بالكتب السماوية السابقة، فإنها بَشَّرت برسالتى، وجاءت أوصافى فيها.

وممن شهد له بالنبوة ورقة بن نوفل، فعندما أخبره الرسول ﷺ، بما حدث له فى غار حراء، قال هذا هو الناموس أى الوحى الذى أنزله الله على موسى عليه السلام ـ والله أعلم.

---

(١) تفسير المراغى جـ٥ ص٦٩.

• الخاتمـــة •

ونلاحظ أن خـواتيم السور، كـالاستـهلال فى البـراعة والتشـويق الجزل.

والختام قد يتضمن أدعية وأوامر ونواهيَ ومواعظ وما شابه ذلك.

وهنا أكدت السورة على صِدق رسول الله ﷺ وأنه مرسل من ربه، وأوضحت صفات أولى الألباب الصادقين مع ربهم.

وبهذا ينتهى - بفضل الله تعالى وعونه - تفسير هذه السورة الكريمة سورة الرعد المدنية، تفسيرًا تحليليا وروحيا.

والتى تناولت عشرة مباحث، وهو تفسير وسيط لِتلكم السورة التى رسمت للناس، معالم حياة أفضل بمشيئة الله تعالى.

نسأل المولى الكريم أن يجعل هذا القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وأنس نفوسنا.

إنه على مـا يشاء قـدير، وبالإجـابة جـدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

القاهرة فى ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م

المؤلف

أ . د / عبد الحميد محمود متولى

• أهم المراجع •

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: أهم مراجع التفسير:

١ ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى: للإمام العلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى المتوفى ١٢٧٠ هـ رضى الله عنه ـ دار الفكر بيروت ١٩٩٥م.

٢ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: للإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى ـ المتوفى ٩٨٢ هـ ـ رضى الله عنه ـ طبعة دار الفكر بيروت.

٣ ـ تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ عماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى ـ المتوفى ٧٧٤ هـ ـ رضى الله عنه.

٤ ـ التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»: للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر ـ المتوفى ٦٠٤هـ رضى الله عنه ـ دار الفكر بيروت سنة ١٩٩٥م.

٥ ـ الجامع لأحكام القرآن: للإمام أبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ـ المتوفى ٧٦١هـ ـ رضى الله عنه ـ دار الفكر بيروت ١٩٩٥م.

٦ ـ البحر المحيط: للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى الغرناطى ـ المتوفى ٧٥٤هـ ـ رضى الله عنه ـ دار الفكر بيروت ١٩٩٢م.

٧ ـ الكشـاف عن حقـائق التنزيل وعـيون الأقـاويل فى وجوه التـأويل: للإمام أبى القـاسم جار الله محـمد بن عمـر الزمخشـرى ـ المتوفى ٥٢٨هـ ـ رضى الله عنه ـ طبعة دار المصحف.

٨ ـ الفتوحـات الإلهية بتوضيح تفسـير الجلالين للدقائق الخفـية: للإمام سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل ـ المتوفى ١٢٠٦هـ ـ رضى الله عنه ـ دار الفكر بيروت ١٩٩٤م.

٩ ـ فتح القديـر: للإمام محمد بن علـى بن محمد الشوكـانى ـ المتوفى ١٢٥٥هـ ـ رضى الله عنه ـ دار الحديث ـ القاهرة ١٩٩٣م.

١٠ ـ محـاسن التأويل: للإمام مـحمد جـمال الدين القاسـمى ـ المتوفى ١٣٣٢هـ ـ رضى الله عنه ـ دار الفكر بيروت ١٩٧٨م.

١١ ـ تفسيـر المراغى: لفضيلة الشيخ أحمـد مصطفى المراغى ـ دار الفكر للطباعة والنشر.

١٢ ـ تفسـير التحرير والتنوير: للإمـام محمد الطاهر بن عـاشور ـ الدار التونسية للنشر.

١٣ ـ جامع البـيان عن تأويل آى القـرآن: لأبى جعفـر محمـد بن جرير الطبـرى. ـ المتـوفى ٣١٠هـ رضى الله عنه ـ مطبـعـة دار الحـديث سنة١٩٨٧م.

١٤ ـ فى ظلال القرآن: للشيخ سيد قطب ـ دار الشروق ١٩٩٤م.

١٥ ـ معـانى القرآن: للزجاج ـ الإمـام أبى إسحاق إبـراهيم بن السرى ـ المتوفى ٣١١هـ ـ دار الحديث ١٩٩٤م.

ثالثا: مراجع الحديث:

١ ـ صحيح البخارى: لأبى عبد الله مـحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى ـ المتوفى ٢٥٦هـ ـ طبعة دار الشعب.

٢ ـ صحيح مسلم: لأبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ـ المتوفى ٢٦١هـ ـ طبعة الحلبى ١٩٥٥م.

٣ ـ الجامع الصحيح: وهو سنن الترمذى: لأبى عيسى محمد بن عيسى ابن سورة ـ المتوفى ٢٧٩هـ ـ طبعة الحلبى ١٩٦٨م.

رابعا: مراجع علوم القرآن:

١ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى ـ المتوفى ٨١٧هـ ـ المكتبة العلمية بيروت.

٢ ـ التحبير فى علم التفسير: للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ـ المتوفى ٩١١هـ ـ دار الفكر بيروت ١٩٩٦م.

٣ ـ لباب النقول فى أسباب النزول: للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى ـ المتوفى ٩١١هـ ـ دار المعرفة بيروت ١٩٩٧م.

خامسا: القراءات:

ـ إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر: للإمام أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد الدمياطى الشافعى ـ المتوفى ١١١٧هـ ـ طبعة عبد الحميد حنفى المشهد الحسينى ـ القاهرة ١٣٥٩هـ.

سادسا: المعاجم:

١ ـ المفردات فى غريب القرآن: لأبى القاسم الجنيد بن محمود ـ المعروف بالراغب الأصفهانى ـ المتوفى ٥٠٢هـ ـ طبعة دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٢م.

٢ ـ أساس البلاغة: للإمام جار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ـ المتوفى ٥٣٨هـ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

الفهرس

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٨/١٧٨٩٠٦

إسلاميك جرافيك
هاتف: ٠١٠١٥٥٥٩٢٧



ذلكم الكتاب

دراسة روحية وتحليلية، لسورة الرعد المدنية.

اشتملت على العديد من التوجيهات الربانية والأخلاقية لِسلوك الفرد والجماعة المؤمنة.

وهى قبسات من نور الحق واليقين لمن أراد أن يذَّكَّر أو أراد شكورا.

فى أسلوب علمى سهل مُبسط بمشيئة الله تعالى.

نسأل المولى الكريم، أن يجعلها خالصة مخلصة لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين إلى يوم الدين.

المؤلف

أ. د/ عبد الحميد محمود متولى